أيّام
في الاتحاد السوفياتي



حسن نجيلة

مشاهدات وانطباعات



منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

ايام في الاتحاد السوفياتي

حسن نجيب تلمه

أيام في الاتحاد السوفياتي

مشاهدات وانطباعات

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

مقدمة

لست من المؤمنين بالشيوعية ، لا استخفافاً بها وتهويناً لشأنها ، بل لأنني رجل تجاوزت الخمسين من العمر وعشت على مفاهيم معينة يستحيل علي التخلي عنها ، وإن كنت أؤمن بمبدأ الاشتراكية وأدين به منذ عهد بعيد ، ودوافعي لتسجيل ونشر هذه الانطباعات عن الجمهوريات التي اتيحت لي في زيارتي للاتحاد السوفياتي تنبع من اعجابي وتقديري لمواقف هذا الشعب العظيم من قضايا الحرية في العالم ومناصرته المنقطعة النظير لكل الشعوب التي تناضل من اجل استعادة حريتها من المستعمرين ، ووقوفه بصلابة في كل الميادين يحارب الاستعمار في كل صوره ، ويدعو بإخلاص للمحبة والسلام بين كافة شعوب العالم دون تفرقة لونية او عنصرية .

وقد اكتسب في قلوبنا نحن ابناء الشعب العربي مكانة خاصة عندما وقف بجانبنا يؤيد بكل قوة الحق العربي في فلسطين ، وقد تجلّت مساندته في اروع صورها بعد نكسة حزيران (يونيو) المشؤومة التي أوشكت ان تقضي علينا لأمد طويل لولا المساعدات الحربية الضخمة العاجلة التي قدمها الاتحاد السوفياتي لإعادة البناء الحربي .

ووقف الاتحاد السوفياتي في المجالات العالمية وفي اجتماعات هيئة الامم ومنظماتها ينافح عن الحق العربي ويذود عنه مؤكداً وجوب انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي التي احتلتها في حرب حزيران (يونيو) معززاً في ذلك وجهة النظر العربية أيما تعزيز .

وعندما كان السودان رازحاً تحت وطأة الاستعمار الانكليزي كان يحارب بشدة كل ما له ادنى صلة بالاتحاد السوفياتي من ثقافة وفكر ، وأصدر قانوناً سماه : « قانون النشاط الهدام » وبموجبه صار يحاكم محاكمات قاسية كل من يعثر معه على كتاب او صحيفة تحمل افكاراً او آراء شيوعية ، ولكم زجّ في السجون شباباً من خيرة المثقفين السودانيين لهذا السبب .

وقد عمل على نشر الكثير من الدعايات السيئة عن الاتحاد السوفياتي تنفيراً للناس منه .

وقد صعق الانكليز عندما خرجت مظاهرات السودانيين في العواصم الكبرى تهدر بالهتاف بحياة الاتحاد السوفياتي وممثله في مجلس الأمن (غروميكو) وذلك عندما عرضت قضية تحرير وادي النيل من الاستعمار الانكليزي على مجلس الأمن في عهد وزارة النقراشي باشا ، وكان وفد السودان — الذي خرج بالقضية السودانية لأول مرة للمجال العالمي — بجانب النقراشي باشا عند عرض القضية . وتآمرت الدوائر الاستعمارية بقيادة انكلترا واميركا على حريتنا فحاربتها بضراوة . صوت واحد هو الذي ارتفع يناصرنا ويؤيدنا ، وكان هذا الصوت هو صوت ممثل الاتحاد السوفياتي (غروميكو) ، وعرف السودان منذ ذلك الوقت معنى الصداقة للشعب السوفياتي ، وعبّر عن ذلك تعبيراً قوياً بالمظاهرات الصاخبة التي حيّا فيها الاتحاد السوفياتي ، وهاجم فيها الاستعمار وسدنته هجوماً عنيفاً .

وفي سورة من الغضب عارمة القى الانكليز القبض على عدد كبير من السودانيين وزجوا بهم في السجون ، ولعل اكثر ما اغضبهم ان يواجههم الشعب السوداني علناً بعواطف العرفان بالجميل والصداقة للاتحاد السوفياتي وهم الذين ، طوال عهد حكمهم ، ينفرون السودانيين منه ويصورونه في صور ممعنة في السوء وقد توهموا ان سياستهم هذه قد اثمرت بغضاً وكرهاً .

لقد خرج الاستعمار الانكليزي من بلادنا ، وتنفسنا الصعداء ، وخرجنا الى العالم الفسيح نجوبه عرضاً وطولاً ، وعرفنا اين نصراء الحرية والسلام ، وأين اعداؤهما . ولم يعد محرماً علينا ان نزور بعض البلاد وأن نصادق شعوبها كما كان ذلك في عهد الاستعمار ، وما كان يمكن ان يدور في ذهني قط في ذلك العهد القاتم ان ازور الاتحاد السوفياتي وأن اكتب عنه !

وبعد ، فهذه انطباعات عن بعض الجمهوريات في الاتحاد السوفياتي زرتها زيارة غير مستأنية كما ينبغي ، فهي ليست دراسات عميقة بقدر ما هي انطباعات عابرة كنت اميناً في تسجيلها . ولعلها لا تخلو من فائدة للقارىء .

ليست الحياة في كل جمهوريات الاتحاد السوفياتي في مثل هذا المستوى الذي جاء في هذه الانطباعات ، فقد علمت ان هناك جمهوريات كانت تعاني منذ عهد بعيد تخلفاً شنيعاً ساعدت عليه الطبيعة ، وهي وان كانت قد خطت في هذا العهد خطوات واسعة للأمام إلا انها ما تزال متخلفة بالنسبة للجمهوريات التي ذكرت بعضها في هذا الكتاب .

ختاماً اود ان اتقدم بالشكر العميق للسادة اعضاء جمعية الصداقة السودانية — السوفياتية بالخرطوم ، وأعضاء جمعية الصداقة السوفياتية — السودانية بموسكو ، وأعضاء جمعيات الصداقة العربية الذين استقبلونا ورافقونا في جمهوريات ليننغراد وجورجيا ، وأبخازيا ، إذ هيئوا لنا رحلة مفيدة ممتعة كان من ثمارها هذا الكتاب .

حسن نجيلة

١

لقاؤنا الاول مع موسكو

عندما اقتربت الطائرة بنا من موسكو وقيل اربطوا الاحزمة استعداداً للهبوط في احد مطاراتها الدولية ، تطلعت من نافـذة الطائرة في شغف استجلي معالم العاصمة التي صارت إحدى مراكز الثقل المرموقة في التوازن العالمي ، والتي صار لإسمها دوي في آذان شعوب العالم .

ومن ذلـك العلو الشاهق ، استبنت خضرة تغطي مساحة عظيمة من الارض ، عرفت انهـا غابات كثيفة ، وضحت لي بأشجارها الباسقة الملتفة عندما دنت الطائرة من الارض في طريقها للهبوط ، فذكرت غابات جنوب السودان لتشابه الكثافة في كليهما إلا ان غابات موسكو من صنع الانسان زرعها ونمقها ورعاها ، وخلت من الحيوان المفترس ، والإنسان العاري الممعن في متاهات التأخر !

وبلغنا موسكو في الصباح يوم الجمعة في اليوم السادس عشر من شهر ايار (مايو) ١٩٦٨ ، وتقدمت من سلم الطائرة لأنزل وأنا خائف وجل فقد حذروني هنا من برد موسكو القارس ، وقـــد تدثرت ببالطو الصوف السميك ، وأنا كاره له ، وخرجت من الطائرة لأجدني في جو لطيف بعيد كل البعد عن ذلـك الجو الذي حدثوني عنه وترقبته في وجل ، وكانت

الشمس مشرقة إلا انك لا تحس بلذع حرارة اشعاعها ، وكان اول ما تحدّث بـه مستقبلونا من اعضاء جمعية الصداقة السوفياتية السودانية انهم يستقبلون في هذا اليوم اول ايام الربيع ، وإن الحرارة ترتفع عن الصفر بأكثر من عشر درجات وهو حدث ينتظره أهل موسكو في شغف بعد ايام الشتاء التي كان الصفر فيها درجة عالية من الحرارة !. وحمدت الله كثيراً ، ان استقبلتنا موسكو في مستهل ايام الربيع بجو لطيف منعش لم اشعر فيه بهزّة الانتقال بين جونا الشديد الحرارة وجوّها الشديد البرودة كما كنت أتوقع !

وجلسنا في بهـو المطار الفخم في ارتقاب انتهاء الاجراءات الجمركية التي تولاها عنـا مستقبلونا الاعزاء من اعضاء جمعية الصداقة السوفياتية السودانية والذين رحبوا بنـا ترحيباً حاراً ، كانوا يتحدثون الينا بلغتهم الروسية ، وتتولى الترجمة للعربية فتـاة روسية يانعة واسعة العينين يشع منها الذكاء ، دقيقة الملامح ، ترتدي ثيابـاً بسيطة ولكنها نظيفة انيقة ، أعجبني فيها انها كانت تحدّثنا باللغة العربية الفصحى بطلاقة ، وقد علمت منها انها تلقت دراستها العربية في معهد اللغات الشرقية بموسكو وكانت ايضاً تتولى نقل كلامنا الى زملائها بلغتهم بسرعة وفي غير تلعثم .

ونحن في بهو المطار في ارتقاب الفراغ من الاجراءات الرسمية ، جاءنا موظف رسمي ، مـع مندوبي الجمعية الذين كانوا يقومون نيابة عنا بتسلم حقائبنا ، ومعهم عمال يحملون كل الحقائب ، وظننا ان الاجراءات قد انتهت وأنا على وشك مغادرة المطار الى مدينة موسكو إلا اننا فوجئنا بالموظف الرسمي ومندوبي المستقبلين يضعون امامنا حقيبة بها مزق يسير في جانبها ، وكانت تلك حقيبتي ، وقد حدث المزق الصغير عند السفر بمطار الخرطوم ، ولكن المسؤولين في مطار موسكو لم تطب نفوسهم لهذا المزق ، وتوهموا ان يد شخص ما ربما عبثت بالحقيبة ، فجاءوا لكي اراجع محتوياتها ليطمئنوا او تتحقق شكوكهم بفقد شيء منها ليتولوا ما يرونه من اجراء ، وعبثاً

حاولت اقناعهم بأن هذا المزق من الخرطوم ولا جديد فيه . او اني لا أتهم يـداً امتدت الى داخل الحقيبة ، وأخيراً اضطررت الى فتحها تحت إلحاحهم ومراجعة محتوياتها البسيطة ، وأكدت لهم انني لم افقـــد شيئاً ، فاطلقوا سراحها !

وقد اكد لي هـــذا الحادث البسيط مدى الدقة التي تعمل بها كل الاجهزة المسؤولة ، الأمر الذي تجلى لنا فيما بعد واضحاً كل الوضوح عندما اخذنا نوغل في الطواف داخل الاتحاد السوفياتي ، وكان الطابـع المميز لكل العاملين هناك الدقة ، النظام ، والروح الجماعية المتأصلة في حياتهم .

وحملتنا السيارة من المطار الى فندق اوكرانيا الذي يعـد من فنادق الدرجة الاولى الفخمة ، وانه لكذلك ، وأدهشني ورفيقاي الاستاذ بابكر محمد علي وعمر الفاروق ، اتساع الشوارع ونظافتها الى حد ملفت حقـاً ، والمسافة من المطار حتى مدينة موسكو اكثر من ثلاثين كيلومتراً ، وتقوم على جانبي الطريق كثير من المباني المختلفة والحدائق والاشجار ، والمناظر الخلابة ، وبعد ان قطعنا شوطاً بعيداً ، ونحن نقترب جـداً من المدينة التـاريخية – موسكو – أشار مرافقونا الى نصب عالٍ على يمـين الطريق وقال : لقد بلغت جيوش النازية هذا المكان في الحرب العالمية الاخيرة ، وكانت قذائفها تبلغ موسكو بسهولة فتقتل وتهدّم وتخرّب !. وكان هتلر على يقين من النصر ، فقد شارف جيشه طلائع المدينة كما ترون ، وقد أعد احتفالاً عظيماً بالنصر يستعرض فيه جيوشه المنتصرة في قلب موسكو !

وتذكرت تلك الايام التي كنا نتابع فيها مـا يذيعه راديو برلين عن تلك الانتصارات النازية التي اذهلت العالم ، وكان النازيون ثملين بخمر هذه الانتصارات في الشرق والغرب ، وقيل ان هتلر كان واثقاً من ان جيوشه ستدخل موسكو ظافرة ، وأنهـا ستقوم امامه باستعراض تاريخي وهي تمشي مشية الاوزة التي تدل على الزهو والخيلاء والبطر بالنصر !

ومن حق هتلر ان يعد حفلة للنصر ، فها هي موسكو قيد اذرع من جيوشه الزاحفة .. وأخذت اتطلع بنظري الى حيث كانت جيوش هتلر ، وإلى المدينة القريبة الواضحة المعالم امامي من هذا المكان ، وعجبت للأقدار كيف تقلب النصر المؤكد الى هزيمة غير متوقعة .

فمن هذا المكان المشرف على موسكو اخذت جيوش هتلر تتراجع وتتقهقر وجيوش روسيا تزحف وتتقدم حتى بلغت برلين ، وخلصت العالم من النازية وجنون هتلر !

نعم ! ففي الفترة من شهر ايلول (سبتمبر) حتى تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٩٤١ كانت جيوش النازية تقترب من موسكو، إذ كان هناك ثمانون فرقة عسكرية المانية توشك ان تطبق عليها ، بقيادة ثلاثة من عباقرة العسكريين الالمان ، جودريان قائد سلاح الدبابات ، والفيلد مارشال فان بول قائد الفرق الوسطى ، والفيلد مارشال براو هيشن قائد المشاة .

وبقيت هذه الفرق ترمي موسكو بحمم قنابلها ، فتقتل وتدمّر ويخيّل لقادتها ، ولهتلر الذي كان يتابعها بقلق مشوب بالزهو ، انها قاب قوسين او ادنى من احتلال العاصمة العريقة !

وفي اليوم الخامس من شهر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤١ ، بدأت القوات السوفياتية تتحرك من موسكو، فقد انتهت بالنسبة لها مرحلة الصمود التي اجتازتها بشجاعة فائقة ، وبدأت مرحلة الهجوم على العدو المرابط على ابواب المدينة ، وقاد الهجوم التاريخي ثلاثة من الجنرالات العظام ، كونيف ، وزوكوف ، وتيما شنكا ، واذكر جيداً ان السودانيين في تلك الايام العصيبة كانوا شديدي الاعجاب بالقائد الروسي تيما شنكا - ويرددون اسمه في كثير من الاعجاب؛ والسودانيون مولعون بالبطولات، وكانوا يسمونه (تيمشنكو) ويتابعون انباء تلك المعركة الضروس من مختلف الاذاعات العالمية بكل مشاعرهم .

ويقول مؤرخو تلك الحقبة الدامية ، ان الالمان قد خسروا في معركة موسكو اربعين فرقة عسكرية أي نصف مليون قتيل ، و١٣ الف دبابة و٢٥ الف مدفع و١٥ الف عربة !

لكم كلف جنون هتلر وحلمه في امتلاك العالم الشعب الالماني !

وتذكرت هنا موقف العرب من اسرائيل التي ابطرها النصر في جولة واحدة وهو نصر دون نصر جيوش النازية في روسيا بكثير ، وأحسست بالثقة والطمأنينة ، فها هو شاهد من التاريخ امامي مجسداً .

كان مرافقونا يشيرون الى النصب التي اقيمت حيث قارب جيش هتلر مدينتهم بالأمس في زهو واعتداد ، كأنهم يقولون لنا : انظروا ، كيف كنا في حالة من الخطر لا تدانيها حالة ، ولكننا لم نيأس من النصر ، فصمدنا وحاربنا في عزيمة صادقة ، وبأس قوي حتى انتصرنا .

وأقفز بالقارىء الى صورة ترتبط بهذه الصورة كل الارتباط ، فعندما كانت الطائرة تغادر بنا مدينة سخومي في جمهورية ابخازيا في جنوب الاتحاد السوفياتي ، في احدى رحلاتنا الى هناك ، شهدت ركاب الطائرة يستقبلون رجلاً كبيراً واضح الشخصية في احترام بالغ ، ويحيّونه بإحناء الرؤوس ، ويفسحون له في الطريق للطائرة ، فعجبت لذلك ، وعندما استقر بي المقام داخل الطائرة ، كان الرجل الوقور المحترم يجلس على مقعد امامي ، وكانت نفس نظرات الاحترام تحيط به من الراكبين ، وأحس مرافقي اني في حاجة لمعرفة شيء عن هذا الرجل الذي يحظى بكل هذا القدر العظيم من الاحترام ، فقال لي : ان هذا الرجل هو احد الجنود الثلاثة الذين رفعوا العلم السوفياتي فوق بناء الرايخستاغ « برلمان النازية » في برلين عندما دخلها جيشنا الظافر في الحرب الاخيرة ! وأضاف يقول : ان هؤلاء الجنود الثلاثة الذين رفعوا علمنا على قمة الرايخستاغ الهتلري معروفون جيداً لدى جميع أفراد الشعب السوفياتي فان الصحف والمجلات تنشر صورهم في كل مناسبة تستدعي ذلك ، فهم قبلة

انظار الشعب وموضع تقديره وإكباره . ونظرت مرة اخرى من جديد للرجل الجالس امامي في الطائرة وأنا اشعر نحوه بمثل ما يشعر به هؤلاء المحيطون به من ابناء وطنه ، فكلنا تستهوينا البطولة ونعتز بانتصار المعتدى عليهم ، ولكم أتطلع الى اليوم الذي يحاط فيه بمثل هذا التقدير الفائق جنود من العرب يرفعون اعلامنا فوق مبنى الكنيست الاسرائيلي القابع في الارض العربية المغتصبة .

ان الشعب السوفياتي يحيط ابطاله احياء وأمواتاً بكل معاني التكريم والإجلال ، كما شهدت وسجلت في مذكراتي هذه .

واحتوتنا موسكو لأول مرة ونحن نتطلع من نوافذ السيارة الى مبانيها الفخمة العالية والى شوارعها الواسعة النظيفة جداً ، وقد ادركنا سر هذه النظافة ، ليس في موسكو وحدها بل في كل الاماكن التي زرناها في الاتحاد السوفياتي ، فهي ترجع اساساً الى حرص كل شخص هناك على ابقاء مدينته وأرضه نظيفة دائماً ، فلا يلقي بأي بقايا مهما كانت تافهة او صغيرة الحجم جداً على الارض بل يحملها في يده حتى يصل الى اول (سبت) خصص للبقايا فيلقي فيه ما يحمله ، وعلى طول الشوارع وفي كل ممرات الفنادق وواجهاتها وفي كل محل تدخله ، العديد من هذه العلب التي أعدت للبقايا ، وبالطبع هذه ظاهرة لا تنفرد بها موسكو وغيرها من مدن الاتحاد السوفياتي، فهي موجودة في كل البلاد المتقدمة ، ولكن الظاهرة الملفتة للنظر هنا حرص الناس البالغ على ألا يلقوا بأي شيء على الارض .

وقد بلغ من هذا الحرص ان رأيتهم ،اذا لم يجد الواحد منهم منفضة بجانبه لرماد سيجارته المشتعلة ، فتح علبة (الكبريت) ونفض في داخلها رماد سيجارته وأغلقها ، كما يدخل في هذه العلبة اعواد الثقاب التي يشعل بها سجائره اذا لم يكن بجانبه ما يلقيها فيه ، ومع ان نفض رماد السيجارة على الارض لا يحدث أثراً يذكر، وقد نستخف نحن بعود ثقاب نلقيه على الارض،

ولكن شيئاً من ذلك لا يحدث هناك ، لا لأن هناك قوانين ولافتات معلقة تمنع ذلك بل لأن تربيتهم الوطنية وحرصهم على ألا يلوثوا ثرى وطنهم بالأوساخ هو الدافع لكل هذا .

اذكر مرة ان كنا في بهو كبير لفندق في لينينغراد نشهد على شاشة التليفزيون مباراة في كرة القدم بين منتخب من الاتحاد السوفياتي ومنتخب من تشيكوسلوفاكيا ، وهي مباراة تثير اهتماماً فائقاً لدى الشعبين ويحتشد الملايين لمشاهدتها ، وقد امتلأ البهو الكبير بعدد كبير من المشاهدين من الجنسين ، وكانت بجانبي شلة من الفتية والفتيات يتابعون المباراة في حماس ، ثم اشعلوا سجائرهم ، ولم تكن بجانبهم مطفأة لرماد السجاير فأسرعت احدى الفتيات وجاءت بقرطاس، ولفته بطريقة اسطوانية، وحملته بين يديها وجلست بينهم وأخذوا ينفضون رماد سجائرهم في ذلك القرطاس! ولم يفكر واحد منهم في أن ينفض رماد سيجارته على ارض الغرفة او يلقي العقب عليها ! فقد دسوا الاعقاب اخيراً داخل القرطاس مع الرماد .

وقد شملت العدوى رفيقاي في الرحلة بابكر محمد علي وعمر الفاروق ، فرأيتهما ينفضان رماد ما يدخنان من سجاير داخل علبة الكبريت، إذ لم تكن بجانبهما مطفأة . فقلت لهما مداعباً : ارجو ان تستمرا على ذلك عند عودتكما للخرطوم فلا تلقيا بأعواد الكبريت ورماد السجاير وأعقابها على الارض دون اكتراث كما نفعل هناك !.. وأحسبهما قد نسيا او تركا ذلك الحرص ، وأنهما يلقيان الآن ما شاءا على اية بقعة من الارض ، الأمر الذي يعدّ خروجاً على الآداب العامة في الاتحاد السوفياتي ويجعل الناس ينظرون بدهشة واستنكار لفاعله ان وجد !

انني أنثر خواطري على الورق دون تقيد بترتيب الرحلة الزمني، فما زلت أحدثكم وأنا في اول العهد بموسكو ، وقد انزلنا فور وصولنا في فندق فخم من فنادق الدرجة الاولى ، فندق اوكرانيا ، وهو كما ترون يحمل اسم جمهورية

تعد من الجمهوريات الاولى في الاتحاد السوفياتي ، وأعجبني فيه انـه يطل بنا على نهر موسكو ، وهو نهر عظيم يقارب النيل اتساعاً وعمقاً وقد طفنا حوله اكثر من مرة ، وأسيت للنيل العظيم الذي لم نستطع الانتفاع به كما يجب حتى الآن ، وأين هو من نهر موسكو الذي استغل احسن استغلال ، فاستنبطت منه الكهرباء لتسهم في التصنيع والعمران ، وتسير عليه سفن كبيرة لتنقل الحاجيات الى المناطق المختلفة على جانبيه ، وهو ايضاً قـد استُغل للترفيه ، فأعدت القوارب البخارية ، والقوارب التي تسير بالمجاديف ، وجموع الشباب ، وعشاق رياضة الماء غدواً ورواحاً على مائه بهذه القوارب في مرح ونشوة ، وعلى الضفتين جنات وارفة الظلال وحدائق غلب ، وزهور تهش لها النفس ، وجمال طبيعي ساحر يأخذ بالألباب ، والناس على الضفتين زرافات ووحداناً يتمتعون بجمال الطبيعة ويمتعون ابصارهم بمـا حولهم من حيـاة زاخرة بكل صنوف المتعة والجمال .

وينساب نهر موسكو ، وعليه هذه الألوان من المتع ، حتى يلتقي قريباً بنهر الفولجا ، وقد شاء سوء حظنا ، وبرنامجنا مثقل بالزيارات والسفريات ، ألا نرى هـذا المنظر الرائع للطبيعة عنـدما يلتقي النهران : موسكو والفولجا والذي يذكرني بلقاء النيلين عندنا في الخرطوم .

لقد انتفع الشعب السوفياتي من انهاره كما شهدنا في هذه الرحلة اقصى مـا يمكن الانتفاع به من وجود هذه الأنهر سواء باستغلال القوى الكهربائية ام في محيط النقل النهري ام في استنبات الحدائق الرائعة ، ام في ايجاد كل صنوف الرياضة المائية ، ما نعرفه وما لا نعرفه .

وكنت كلما شهدت شيئاً من هذا ، غبطت الشعب السوفياتي على انتفاعه بأنهره كل هذا الانتفاع وسألت الله مخلصاً ان يهبنا من المقدرة والاستطاعة ما يمكننا من استغلال نيلنا العظيم وروافده بمثل ما استغل انهاره هـذا الشعب الذي تقدم كثيراً في كل مجال حيوي .

وقُبيل انتصاف نهار وصولنا لموسكو دعينا للاجتماع بالسادة اعضاء لجنة جمعية الصداقة السوفياتية السودانية ، في الدار التي خصصت لهذه الجمعية ، وأقلتنا السيارات الى تلك الدار الصديقة ، واستُقبلنا بحرارة ، وجلسنا حول مائدة مستطيلة وُضعت عليها قناني عديدة من مشروب التفاح السائغ الشهي ، وبعض القناني كانت تحتوي على مياه معدنية معبأة من ينابيع المياه المعدنية التي اشتهرت بها بعض المواضع في موسكو ، قامت في كثير منها مستوصفات لعلاج بعض الامراض ، والتي تفيد فيها انواع معينة من هذه المياه المعدنية .

وعند بدء جلوسنا القى السيد رئيس جمعية الصداقة السوفياتية السودانية كلمة سامية المدلول ، رحب فيها بنا ، وحيا الشعب السوداني مؤكداً صداقة الشعب السوفياتي لهذا الشعب ، وتناول عدة قضايا عالمية ، كان في مقدمتها قضية الشرق الاوسط ، وتأكيد مناصرة الشعب السوفياتي للعرب في نضالهم ضد الاعتداء الصهيوني الآثم . وكان لحديثه هذا أجمل الوقع في نفوسنا .



جانب من الاجتماع مع اسرة مجلة الصداقة بموسكو

ورددت عليه بكلمة مماثلة ، شكرت فيها حرارة استقبالهم لنا ، وجميل مشاعرهم نحو بلادنا ، وصدق بلائهم من اجل القضية العربية ، وحمدت لهم مواقفهم المثالية في مساندة كل الشعوب التي تعمل للتحرر من ربقة الاستعمار

ومساعداتهم القيمة للشعوب النامية التي نشدت عونهم فلم يخذلوها . كما تحدث زميلاي في الرحلة احاديث مماثلة .

وظللنا نتبادل احاديث المودة والإخاء زهاء الساعتين ، ونشرب خلال ذلك من قناني التفاح والمياه المعدنية الصافية .

وكانت الفتاة الرقيقة المليحة البسيطة المظهر ، والتي استقبلتنا في المطار وتولت ترجمة احاديثنا ، تجلس بجانبي ، وتنقل كلماتي وكلمات زميليّ الى اللغة الروسية ، ثم تقوم بنقل كلمات الاصدقاء الروس الموجهة الينا الى العربية .

ولقد اشفقت عليها ، فقد كان الحديث طويلاً ومتصلاً وهي لا تكف عن نقله الى العربية تارة والى الروسية تارة اخرى في حذق وسرعة ، وكانت دائماً تحمل الينا معاني كلمات اصدقائنا الروس في لغة عربية فصحى سليمة رغم سرعة الترجمة ، وأشك ان كان هناك شاب عربي اصيل يحسن اللغتين يستطيع ان يحدّثنا في مثل لغتها السليمة التي قلّ ان تخطىء فيها .

ولقد ترك هذا اللقاء الاول مع هؤلاء الرجال اصدقاء السودان ، أثراً بعيد الغور في نفوسنا وما يزال باقياً ما بقينا ، فقد كان الحديث يجري بيننا في غير كلفة او تعمل كما لو كان يجري بين اصدقاء اوفياء عرفوا بعضهم منذ فترة طويلة ، قويت وشائج المودة بينهم ، وتوثقت عرى الصداقة .

وفي كل لقاءاتنا التالية معهم ، ومع غيرهم من الذين استقبلونا واستضافونا في كرم فائق طوال تجوالنا ، كنا نشعر بأن هؤلاء الناس على قدر عظيم من سمو الخلق والاريحية التي تجعلهم اقرب ما يكون الى طبائعنا الشرقية فهم دائماً يهشون لضيفهم ، ويبالغون في اكرامه — ويتحدثون اليه في عاطفة حارّة صادقة ، وينزلونه من انفسهم اكرم منزلة .

وفي المساء ذهبنا الى مطعم الفندق لتناول طعام العشاء ، وقد صفت الموائد النظيفة الانيقة ، وخفق قلبي وأنا أرى علم السودان الحبيب يتوسط

المائدة التي حجزت لنا ، وكان منظراً هشت له نفوسنا ، وطابت ، فما أكرم ان ترى علم وطنك يستقبلك وأنت بعيد عنه .

ونظرت حولي الى الموائد العديدة في ذلك البهو الواسع، ودهشت للأعلام الصغيرة الكثيرة التي كانت تتوسط العديد من الموائد ، وعرفت ان كل هـذه الاعلام إنما تعني ضيوفنا من بلاد صديقة مثلنا .. وأخذت احاول ان اتعرف الى هذه الاعلام، وخيّل إلي انه لا يوجد بلد افريقي او آسيوي او من امريكا الجنوبية إلا ومن ابنائـه ضيوف هنا على الاتحاد السوفياتي!. وقلت في نفسي: ان كان هذا محصول فندق واحد في موسكو من الاصدقاء ، ترى كم يكون في الفنادق الاخرى المنتشرة في موسكو وغير موسكو من مدن الاتحاد السوفياتي؟

وفي الواقع ان هـذا المنظر الانساني الفريد لم ينقطع عن انظارنا طوال رحلتنا في هذه البلاد ، ففي كل فندق انزلنا فيه ، كان يتوسط مائدتنا دائماً علم السودان الحبيب ، وتتوسط الموائد العديدة من حولنا اعلام بلاد كثيرة ، نرى حولها إنماطاً من البشر ، سودا وسمرا وبيضا ، يتحدثون بلغات شتى حتى يخيّل اليك انك في برج بابل التاريخي !

ومما لا شك فيه ان هـذه الظاهرة الفريدة تؤكد في وضوح تام صدق مشاعر السوفيات الانسانية نحو الشعوب الاخرى ، خاصة تلك التي تسير على طريق التحرر والانطلاق وتجارب الاستعمار في شتى الصور التي عرف بها .

وفي ليلتنا تلـك في مطعم فندق اوكرانيا زالت من ذهني صورة عاشت فيه طويلاً ، فقد كنت اعتقد ان حياة التقشف التي عاشها الشعب السوفياتي وهو يبني صرح الاشتراكية لأول مرة في التاريخ ، قد طبعته بطابع الجفاف والتزمت ، وانه بعيد الى حد مـا من حياة المرح والبهجة التي بلغت في بعض الشعوب الغربية حد الفوضى والسفه الاخلاقي غير المحدود .

ولكننا ما كدنا نستقر حول المائدة ، حتى شهدت في ركن المطعم، جوقة

موسيقية اخذت تعزف مختلف الألحان الراقصة ، وبرزت شابة مغنية اخذت تصدح بالأغاني التي لم اعرف معانيها إلا ان الصوت الساحر والوجه المشرق ، والموسيقى العذبة التي تصاحبه جعلت النشوة تسري في نفوسنا كأننا نفقه كل كلمة تغني !

والموسيقى والصوت الشجي الساحر لغة يتأثر بها ويتذوّقها كل ذي حس وشعور على اختلاف لغات البشر .

كانت موائد الطعام – بجانب العدد الكبير من الضيوف الذين تدل عليهم الاعلام التي تتوسط موائدهم – تحفل ايضاً بعدد غير قليل من ابناء الاتحاد السوفياتي من الجنسين يطعمون ويتناولون (الفودكا) الشراب الوطني المحبب اليهم ، والذي قل ان تخلو منه مائدة من موائدهم .

وصدحت الموسيقى بألحان راقصة، وتواثب الفتية والفتيات، بل والكهول من الجنسين ايضاً ، تواثبوا الى حلبة الرقص الممتدة بين الموائد ، وتخاصروا ورقصوا على انغام الموسيقى ، وشاع المرح والبهجة في المكان ، وظللنا نحن الضيوف جلوساً حول موائدنا وأنظارنا تتخاطف الراقصين والراقصات وهم يملأون المكان حيوية وبشراً وحبوراً .

كانت الفتيات والنساء على اختلاف اعمارهن في ثياب انيقة ، ولكن في غير تبذل ، وبين الحين والحين كنا نشاهد بعضهم يختلس قبلة خاطفة على الخد او العنق او الفم ، كحسو الطائر العجل . وكانت اكثر اجسام الجنسين ممتلئة في غير ترهل . لم أر فتاة عجفاء ذات عرقوب ، ولا فتى ناحلا كالمسلول ، ويبدو أنهم يحبون الطعام والشراب ويأخذون منهما حظاً وفيراً ، وقد امنوا غول الغلاء بعد ان زالت من مجتمعهم طبقة التجار والرأسماليين المستغلين .

في هذه الليلة الاولى في فندق اوكرانيا تجلت لي حقيقتان، اولاهما حقيقة الصداقة السوفياتية للشعوب ، تشهد بهذا الأعلام التي تخفق على الكثير من الموائد من حولنا .

والثانية ان صورة التزمت والجمود التي كانت تعيش في ذهني لأبناء هذا الشعب ، استناداً لما عانوه بادىء بدء وهم يبنون أسس الاشتراكية قد زالت ، فالجو المشحون بالموسيقى والغناء والرقص ، والملىء بالمرح والبهجة ، وهذا الشباب الانيق ، الذي ينطق تكوينه بالصحة والعافية ، كل هذا بعيد كل البعد عن حياة الجمود والتزمت ، كما انه ايضاً بعيد كل البعد عن حياة التفسخ الخلقي التي انتشرت في كثير من المجتمعات .

وفي ركن من اركان الفندق كنت اشاهد كلما صعدت الى المطعم رجلاً (ماسح احذية) يجلس على مقعد ويزاول مهنته، والذي شدني اليه انني كنت اجده دائماً – ما لم يكن يؤدي عمله – يقرأ كتاباً او مجلة او صحيفة، ولم أره مرة واحدة – في حالة فراغه – دون أن يكون في يده كتاب يقرأ فيه ، او صحيفة، والكتاب دائماً بجانبه . هذه الظاهرة تكررت مشاهدتها، فسائق التاكسي مثلاً يضع بجانبه كتاباً او مجلة ، ويظل يقرأ ويقرأ حتى يتحرك في (مشوار) . اقول أن هذه الظاهرة تؤكد لنا مدى تعلق الشعب بالاطلاع سعياً وراء المعرفة والمزيد من الثقافة ، ولم اعجب عندما علمت ان سوق الكتب نافقة جداً ، وأن رجال القلم يحظون بمكانة رفيعة ، وأن مخصصاتهم تعتبر من أعلى المخصصات في الاتحاد السوفياتي .

والحديث عن الثقافة يثير في نفسي ذكرى شخص عزيز عليّ ، كم كنت أتوق الى لقياه هنا في موسكو وأنا اعلم انه كان ينتظر لحظات اللقاء ويتوق اليها . وهاأنذا في موسكو اجيل النظر فيما حولي فافتقده اينما اتجهت ، هذا الشخص العزيز السيدة الروسية الدكتورة كلثوم عودة فاسيلفيا استاذة الأدب العربي بجامعة موسكو .

في مستهل عام ١٩٦٥ قام بعض الاصدقاء السودانيين برحلة الى موسكو ، وكانوا على صلة بالدكتورة كلثوم ، وقد كلفتهم ان يحملوا اليها بعض المؤلفات السودانية لأنها تريد التعرف الى الاقلام السودانية ، فاتصلوا بي لأهدي اليها

كتابيّ : « ملامح من المجتمع السوداني » و « ذكرياتي في البادية » ففعلت ، وما كادت تتسلم الكتابين وتقرأهما حتى بعثت إليّ بهذه الرسالة الرقيقة :

حضرة السيد المحترم حسن نجيله

سلاماً وتحية ...

شكراً جزيلاً على هديتكم الثمينة وهي الكتابان المرسلان من قبلكم لي « ملامح من المجتمع السوداني » « وذكرياتي في البادية » .

نحن هنا في الاتحاد السوفياتي نتابع بكل اهتمام نهضة السودان الثقافية والاجتماعية والسياسية ونبذل جهودنا لاطلاع القارىء السوفياتي على النجاحات التي احرزتها وتحرزها بلادكم في هذه الميادين ، وبذلك نوطد العلاقات الثقافية والأدبية بين البلدين وشعبيها ، وإذا لم ينل النشر السوداني حظه من الترجمة الى اللغة الروسية فذلك لأننا غير مطلعين على تطور القصة السودانية ولم نستطع ان نكرّس لها مجموعة خاصة كما فعلنا بالقصة الاخرى للبلدان العربية حيث ترجمنا لكل بلد عربي مجموعة من قصص ادبائها ، وسددنا هذا الفراغ باليسير من ترجمة الشعر السوداني في مجموعتين : « الشعر العربي الحديث » و « الشعر العربي المعاصر » حيث ادرجنا بعض اشعار لشعراء السودان ، وكثيراً ما طلبت من الوفود الثقافية السودانية بأن تساعدنا على سد هذا الفراغ فكانت وعودهم « كوعد ابليس بالجنة » ! على ان الوفد الاخير كما يظهر – صمم ان يكون من الملائكة – ونتيجة هذا هو حصولي على كتابيك القيمين .

تتبعت بكل اهتمام الكتابين ، وقد استرعى نظري ذكرياتكم في البادية ليس لأن الكتاب الآخر – ملامح من المجتمع السوداني – أقل اهمية ، بل لأننا لا نعرف شيئاً عن حياة وعادات البدوي في مجاهل السودان .

ومع ان مخترعات عصرنا قلبت الحياة حتى في البادية رأساً على عقب

وانقرضت من تأثيرهـا اغلب العادات ، فكتابكم سيحتفظ بقيمته لدراسات علميـة تلزم لمن يهتم بتاريخ تطور المجتمع البشري ، ومن جهـة اخرى سيبقى للخلف معلومات عن اسلافه .

فشكراً لكم وحمداً على عملكم الجليل . والآن اسمحوا لي ببعض سؤالات تهمني :

١ – ماذا يشبه (النحاس) من آلات الطرب عند البدوي ؟ استخلصت من الصورة على صفحة ٤٤ ان النحاس يشبه الطبل، فهل هذا صحيح ؟ ام ان الكلمة مأخوذة من اسم (المعدن) المعلوم ؟

٢ – هل لرش دم الذبيحة التي يذبحونها يوم الجمعة على النحاسات الثلاث معنى مقصود ؟ ان هذه العادة ذكرتني بعادة عند فلاحي شمال فلسطين، ففي سنين المحل كانت النساء والبنات يتجولن في الضيعة ضاربات على (الدربكة) ومغنيات هذه الكلمات :

يا أم الغيث غانينا
خبز وزيت طعمينا

ثم يجيئن الى بيت احد الموسرين فلا يذهبن إلا بعد ان يذبح لهن شاة ويرش من دمها على الابواب .

ألم يكن رش الدم في الحالين من بقايا عادات الانسان ايام همجيته حين كان يذبح الذبائح قرباناً للآلهة الشريرة لاستعطافها واتقاء شرها ؟

لربما تكون عندي سؤالات اخرى في المستقبل، اذا تكرمتم عليّ بالجواب سأوجهها لحضرتكم، واني لشاكرة لأعضاء جمعية الصداقة السودانية السوفياتية لأنهم كانوا همزة الوصل بيني وبينكم .

وبالختام تقبلوا مزيد شكري والسلام .

كلثوم عودة فاسيليفا

ورددت عليها ، وأجبت على اسئلتها ، وتوالت بيننا الرسائل ، وأهدتني ذات مرة كتاباً عربياً من مؤلفاتها تضمّن بحوثها وبحوث زميلين لها من الروس الذين تعمقوا دراسة اللغة العربية ، وكانت كل هـذه البحوث التي جاءت في ذلك الكتاب عن الادب العربي الجاهلي وكانت في مستوى رفيع من الاصالة والعمق .

وأسلوب فاسيلفيا العربي من ذلك النوع السهل الممتع ، ولعل رسالتها التي أثبتها هنا تؤكد للقارىء ما ذهبت اليه .

كانت تريد ان تقدم للقارىء في الاتحاد السوفياتي كتابي «ذكرياتي في البادية» مترجماً الى اللغة الروسية . وكانت تردد في كل رسائلها انهـا ترجو ان نلتقي في الخرطوم او موسكو .

وعند عودتي قبل عام من رحلة قمت بها الى بلاد الخليج العربي ، وكنت ارتب في ذهني رسالة لها عن بعض ما شهدت هناك ، إذ كانت تحب الحديث عن العرب والبلاد العربية ، ولكنني فوجئت بمن ينعاها إليّ .

هأنذا في موسكو كما كانت ترجو وتتمنى ، ولكني لن التقي بهـا ، فقد سبقتنا الى ذلك العالم الآخر الذي لا بد لنا من وروده .

عزيزتي فاسيلفيا .. كم انا حزين من اجلك !

ونمنا ليلتنا نوماً هادئاً ، وتطلعت في الصباح من النافذة الى موسكو والى نهرهـا الجميل الذي كان يجري متدفقـاً بالقرب من الفندق ، فتذكرت النيل وساكني النيل .. ويا لقلوبنا التي تهفو اليه أينما سرنا عنه .. نحن بالقرب من النيل ولا نحس به ، فاذا ما ابتعدنا تراءى لنا في كل قطرة ماء .

أيها أبا الأنهار !.. لقد أوحشتنا .



العلم الاحمر يرفرف فوق برلين

« كلما امعنت النظر في أي جانب من مدينة موسكو وشهدت معالم العمران الحديث ، تذكرت ما تعرّضت له من تخريب ودمار عند حصار جيوش هتلر لها ونظرت بعين الخيال لمدينة برلين عاصمة هتلر عندما بلغتها جيوش الاتحاد السوفياتي بعد ان انطلقت من هذا المكان ترد العادين على اعقابهم وتثأر لنفسها ، وتدخل برلين ظافرة بعد ان احالتها الى خرائب واطلال .

وانه لمن المفيد ان نقف هنا عند مذكرات هذا القائد الروسي الشجاع – زوكوف – الذي كان احد القواد الثلاثة الذين قادوا جحافل السوفيات من قلب موسكو الى قمة النصر في تلك الحرب الضروس ، نقرأ في هذه المذكرات بعض ما كتبه عن حصار الجيش الاحمر لبرلين وكيف انتصر ، والنهاية المريرة لذلك المجنون – هتلر – الذي كان يحلم بسيطرة الالمان –شعب الله المختار كما زعم – على كل بلاد العالم !

وفي هذا النصر الساحق بعد شبح الهزيمة الذي كان ماثلاً قرب موسكو ، ما يملأ قلوبنا أملاً في ان النصر لا بدّ من ان يكون للعرب في حربهم من اجل الحق الذي سلبه اللصوص .

والقائد الروسي – زوكوف – صاحب هذه المذكرات ، يسميه المعلقون الحربيون القائد الذي لم يهزم في معركة .

وكتب زوكوف يروي هـذه الفترة الحية في تاريخ الحرب العالمية الثانية يقول عن حصار برلين وسقوطها » :

كان يتولى الدفاع عن كل مبنى ، حامية عسكرية تصل احيانـاً الى كتيبة كاملة . ولكن هجومنا لم يتوقف لحظة واستمر ليلاً ونهاراً ، وقـد تركزت كل الجهود من اجل منع العدو من إعـادة تنظيم دفاعه في مراكز دفاعية جديدة . وكانت تشكيلات الجيوش منظمة على شكل موجـات متتابعة . فالموجة الاولى تهاجم نهاراً . والموجة الثانية تهاجم ليلاً ، وهكذا .

وكانت خطة الهجوم موضوعة بالتفصيل لمواجهة الدفاع عن برلين المعد من قبل بقطاعاته ومناطقه ومراكزه ، فقد تحدد لكل جيش يقتحم برلين قسم معين يعمل فيه ، وكان لكل وحدة او مجموعة حربية شارع معين او ميدان او هدف لتستولي عليه .. ووراء هـذه الضجة الصاخبة التي صاحبت معارك المدينة والتي تبدو في ظاهرها كأنها فوضى شاملة، كانت توجد شبكة تنظيمية دقيقة واعية بكافة التفاصيل .

فقد انصبت النيران الساحقة على كافة الاهداف الرئيسية بالمدينة ، وقـد تحملت بمجموعات وكتائب الاقتحام المشكلة من مختلف انواع الاسلحة الاعبـاء الرئيسية لمعارك قلب المدينة .

وكان جوهر المهمة الرئيسية لمعارك شوارع برلـين هو الحيلولة دون العدو وتجميع قواتـه في قبضة قوية ، وتفتيت حامية المدينة الى اوكار مشتتة وتدميرها بأسرع ما يمكن .

وقد كانت الظروف مهيأة قبل بدء هذه العملية بعد ان تمكنت قواتنامن :

١ – سحق جزء لا يستهان بهمن قوات العدو وعتاده على مشارف المدينة.

٢ - تطويق برلين لمنع الالمان من امكانية تحريك الاحتياطي اليها .

٣ - التدمير السريع لاحتياطي الالمان الذي كانوا يأتون به للمدينة .

كل هذا اتاح لنا ، رغم العديد من الصعوبات، ان نختصر الى اقل ما يمكن معارك الشوارع وأن نيسر على قواتنا مهمة تدمير العدو في برلين .

وكانت كل هجمة للمشاة والدبابات تصحبها ضربات كثيفة من المدفعية والطيران من كل مواقع الجبهة. وكان هناك ١١ الف مدفع من مختلف العيارات تطلق نيرانها معاً دفعة واحدة كل فترة معينة .

ومن ٢١ نيسان (ابريل) حتى ٢ ايار (مايو) سقط فوق برلين نحو ٨,٠٠٠,٠٠٠ طلقة مدفع ، وبلغ جملة ما نزل فوق رؤوس دفاع العدو في تلك الفترة اكثر من ٣٦ الف طن حديد .

وفي اليوم الثالث من معارك برلين وصل بطريق السكة الحديد الخاصة التي تم توسيع شريطها ، كميات من مدافع الحصون اخذت بدورها تطلق نيرانها على المدينة بقذائف تزن كل منها نصف طن . وهكذا دُمر الدفاع عن برلين شر تدمير .

قادة هتلر :

ويصف كبار قادة هتلر هذه الظروف عند استجوابهم بعد وقوعهم في الاسر . قال كيتل :

- كان من الواضح منذ ٢٣ نيسان (ابريل) ان برلين ستسقط لا محالة إلا اذا امكن نقل كل القوات الالمانية من نهر (البا) للقذف بهم ضد الروس المهاجمين. وقد تقرر بالفعل بعد اجتماع مشترك بين هتلر وغوبلز وبيني ويودل، ان يترك الجيش ١٢ من مجموعات المؤخرة الضعيفة لمواجهة الاميركيين، ويهاجم ضد القوات الروسية التي تحاصر برلين .

وقال يودل :

– في ٢٢ نيسان (ابريل) سألني جوبلز : هل من الممكن تفادي سقوط برلين حربياً ؟ فأجبته : ان هذا ممكن في حالة واحدة فقط، وهي ان نأخذ كل قواتنا على نهر البا ، وندفع بها للدفاع عن برلين. وبناء على نصيحة جوبلز ابلغت الفوهرر برأيي، فوافق وأمرني انا وكيتل بأن نبقى مع الاركان خارج برلين لتولي قيادة الهجوم المضاد شخصياً .

اوهام :

وقال الجنرال فيدلنج قائد حامية برلين :

– في ٢٥ نيسان (ابريل) قال لي هتلر: سيتحسن الوضع ، فالجيش التاسع سيقترب من برلين وسيوجه ضربة ضد العدو بالاشتراك مع الجيش الثاني عشر وستنزل هذه الضربة بالجبهة الجنوبية للروس،وستأتي من الشمال القوات شتيز، وستوجه ضربتها نحو الجناح الشمالي .

ولكن كل تلك الخطط كانت مجرد توهمات لدى هتلر ومن يحيطون بـه ، وواضح انهم كانوا قد فقدوا كل قدرة على التفكير الواقعي .

وفي الليلة السابقة لـ ٢٣ نيسان(ابريل) غادر كيتل برلين الى اركان الجيش الثاني عشر، آخـذاً على عاتقه مهمة التحامه بالجيش التاسع . ولكنه في اليوم التـالي لم يستطع حتى مجرد العودة الى المدينة ، وأخذت القوات السوفياتية تدمر كلا من الجيشين .

حمى البرقيات :

وفي كل يوم كانت البرقيات اللاسلكية بتوقيع هتلر تتطاير حامـلة مثل هذه العبارات :

أين الجيش الثاني عشر ؟

– لماذا لا يهاجم فينك ؟

– أين شيرنر ؟

اهجموا فوراً .

– متى يبدأ الهجوم ؟

ونظراً لأن اعمـال الجيش الضارب الخامس بقيادة الجنرال برزارين لم يلق عليها الضوء الكافي في صحافتنا اود هنا ان اتحدث عن بعض مجهوداتها البطولية فقد شاهدت طرقاً منها بنفسي وأحطت علماً بالبعض الآخر بواسطة قـادة الجيش وتشكيلاته .

كانت أهمية خاصة للمهمة الحربية المسندة الى هـذا الجيش وهي الاستيلاء على منطقة الاحياء الحكومية الواقعـة في قلب المدينة ، ومن بينها قصر المستشاريه الذي كان فيه مقر هتلر ، ولهذا عززنا هذا الجيش بفيلق الدبابات الحادي عشر بقيادة الجنرال بوشوك بالإضافـة الى القوات التي وضعت تحت قيادته من قبـل وكانت اكثر المهمات تعقداً في المرحلة الاولى اقتحام محطة سيليزيا ذات الدفـاع المتين وعبور نهر شبراي بضفتيه العاليتين المسلحتين بالخرسانة .

اول اقتحام :

وكان اول من اقتحم برلين من ناحية الشرق :

فرقة الحرس ٩٤ – بقيادة الجنرال جاسبريان – رئيس الادارة السياسية الكولونيل كوزوفكوف .

فرقة الحرس ٨٩ – بقيادة الجنرال سيروحين – رئيس الادارة السياسية الكولونيل جوردينكو .

الفرقة ٢٦٦ - بقيادة فومتشينكوف - رئيس الادارة السياسية الكولونيل لوجينوف .

فرقة الحرس ٦٠ - بقيادة الجنرال سوكولوف - رئيس الادارة السياسية الكولونيل ارتامونوف .

الفرقة ٤١٦ - بقيادة الجنرال سيزرانوف - رئيس الادارة السياسية الكولونيل مجيدوف .

الفرقة ٢٩٥ - بقيادة الجنرال دوروفيف - رئيس الادارة السياسية الكولونيل لوكونين .

ومنذ اربع سنوات تقريباً وجنودنا الابطال ينتظرون هذه اللحظة التاريخية .. جنودنا الذين بدأوا هجومهم المضاد من موسكو وستالينغراد وشمال القوقاز وقوس كورسك وأوكرانيا وروسيا البيضاء والبلطيق وغيرها من مناطق البلاد .. وها قد حانت الساعة ، ساعة الحساب الختامي مع الفاشية .

مشاعر الانتصار :

انمن الصعب ان اعبر بالكلمات عن ذلك الانفعال الذي يتملك كل الجنود السوفيات . وأسوق هنا ما يتذكره نيقولاي فاسيليف رئيس طاقم احد مدافع البطارية السادسة التابعة لآلاي المدفعية رقم ٩٣٢ التابع لفرقة المشاة ٢٦٦ .

« اقترب المساء . وكانت بطاريتنا قد وصلت الى التلال . وشاهدنا بأعيننا المدينة الضخمة وتملكنا شعور غامر بالفرحة والسرور .. هذا هو آخر موقع للعدو ، ولقد جاءت اخيراً ساعة الحساب ولم ننتبه حتى كيف وصلت سيارة ونزل منها قائدها الجنرال برزارين . وحيانا ثم اصدر امره لرئيسنا : على الفاشيين في برلين أضرب !

ولعلنا لم نعمل ابداً من قبل بمثل هذه السرعة الخاطفة ومثل هذا النظام ونحن نطلق النار .

وأخذت الممرضة العسكرية مالا ينايوتشيكو تسطر على قنابل البطاريات هذه الكلمات :

« باسم ستالينغراد ، باسم الدونباس ، باسم اوكرانيا ، باسم الايتام ، باسم الارامل ، باسم دموع الامهات » .

قصص بطولية :

وفي عمليات اقتحام الجزء الشرقي من برلين تميز في المعارك بنوع خاص آلاي حرس المشاة ٢٨٦ بقيادة بريغادير كرافشنكو وآلاي حرس المشاة ٢٨٣ من نفس الفرقة بقيادة البريغادير ايجناتيف ، وكان الجنود يندفعون الى الامام ويحققون البطولات بالجملة .

وعندما اتضح ان هناك مبنى معيناً محصناً تحصيناً قوياً ، ويعوق تقدم قواتنا ، اندفع بلا تردد الكسي كوزنتسوف رئيس المنظمة الحزبية بإحدى السرايا التابعة لآلاي حرس ٢٨٣ وبصحبته عدد من الجنود للالتفاف حول المبنى الضخم من الطرق الجانبية وضربه من المؤخرة . وتم الاستيلاء على هذه الركيزة الدفاعية للعدو .

وتميز ببسالة لا نظير لها الملازم اوكرا ينتسيف من آلاي الحرس ٢٨٣ ، ففي اثناء اقتحام احد المباني تحولت المعركة الى قتال بالسلاح الابيض واندفع الملازم ضد العدو ليقتل بطعناته ٩ مقاتلين من الفاشستيين، واقتدى به ضابط صف الحرس استبيان جروبوزاي الذي قضى مع فصيلته على العشرات من الهتلريين .

واستشهد في هذه المعارك استشهاد الابطال نيكولاي جورشيليف الزعيم

الرائع للجنة الكومسومول بفرقة الحرس ٩٤ ونائب رئيس الادارة السياسية لشئون الكومسومول بنفس الفرقة .

لقد كان دائماً يلهب حماس الجنود بسلوكه في القتال ، وكان دائماً في المكان الذي يتقرر فيه مصير المعركة ، وكان انساناً محبوباً محترماً من جميع جنود الفرقة لبسالته ورعايته الروحية للجنود والضباط .

وفي ٢٢ نيسان (ابريل) احرز اكبر النجاح في اقتحام برلين فيلق المشاة التاسع تحت قيادة بطل الاتحاد السوفياتي الماجور جنرال روسلي، حيث تمكن جنود هذا الفيلق بعد اقتحامهم للمدينة الاستيلاء على كارلس جورست وجزء من كوبينيك ، ووصلوا الى نهر شبرايي وعبروه دون توقف .

وأخذت معارك قلب برلين تجري بعنف متزايد في ٢٥ نيسان (ابريل) حيث كان العدو يبدي مقاومة عنيدة مستنداً الى مراكز دفاعية قوية ، وتكبدت قواتنا بالفعل خسائر كبيرة ، ولكنها ظلت تندفع يلهبها الحماس الى قلب برلين ، حيث لا تزال توجد القيادة العليا للعدو وعلى رأسها هتلر نفسه ، وكنا نعرف هذا من الاذاعة الالمانية ، فقد كان هتلر ما يزال يصدر نداءاته الهستيرية الى جيوشه ان تنقذ برلين دون ان يدري انجيوشه تحطمت على يد قوات جبهة روسيا البيضاء الاولى وجبهة اوكرانيا الاولى .

لحظات النهاية :

كان كل شيء يوشك على الانتهاء ولكن هتلر كان يأمل في حدث مفاجيء يغير سير الحرب مرة اخرى ، ويقول كيتل ، القائد الالماني عند استجوابه :

« ابتداء من نفس صيف ١٩٤٤ كانت المانيا تواصل الحرب من اجل كسب الوقت على امل ان هذه الحرب التي تشترك فيها في الجبهتين دول مختلفة وقادة وجيوش وأساطيل مختلفة من الممكن ان يظهر فيها في أية لحظة تغير مفاجيء تماماً نتيجة لهذا المزيج من القوى المختلفة ، وهكذا كنا نواصل الحرب في

انتظار احداث كان مفروضاً ان تحدث ولكنها لم تحدث » .

وفي لحظة سقوط برلين لم يعد هتلر يستطيع ان يقول شيئاً عن هذه الاحداث ، فأطلق شعار : « خير ان نسلم برلين للاميركان والانكليز، من ان نسمح للروس بدخولها » .

وكان الأسرى من جنود الالمان في برلين يقولون عند استجوابهم : « كان الضباط يؤكدون ان كل الجهود ستبذل حتى لا يسمح للروس بدخول برلين ، وانه اذا كان لا بد من تسليم المدينة فلن يكون ذلك إلا للاميركان » .

كانت المعركة في برلين قد وصلت الى لحظة الختام، وكنا كلنا نود الانتهاء من هذه المعركة قبل اول ايار (مايو) .

مقاومة مسعورة :

ومع ان العدو كان يلفظ انفاسه الاخيرة، إلا انه ظل يواصل القتال محاولاً ان يتشبث بكل بيت وكل مخبأ وكل طابق او كل سطح ، بيد انه رغم كل هذه المقاومة المسعورة كانت القوات السوفياتية تستولي على حي بعد آخر ، وكانت قوات الجنرالات كوزينتسوف وبرزارين ويجدانوف وكانوكوف وتشويكوف تتقدم خطوة فخطوة من قلب برلين .

سقوط الرايخ :

ولسوف يبقى يوم ٢٠ نيسان (ابريل) عام ١٩٤٥م. الى الابد يوماً خالداً في ذاكرة الشعب السوفياتي وفي تاريخ نضاله ضد المانيا الفاشستية ، ففي هذا اليوم وفي الساعة ١٤ و ٢٥ دقيقة تم استيلاء قوات الجيش الضارب الثالث بقيادة الجنرال كوزينتوف وعضو مجلس الحرب الجنرال لتفينوف، على الجزء الاساسي لمبنى الريخستاخ، وقد دارت من اجله معركة دامية، فقد كان الطريق اليه مغطى بمبان متينة ، داخلة في شبكة القطاع التاسع للدفاع عن برلين ،

وكان يدافع عن منطقة الريخستاخ قوات من فرق (اس اس) الممتازة ، يبلغ عددها اكثر من ٦ آلاف شخص ومزودة بالدبابات ومدافع الاقتحام ، و كثير غيرها من مختلف انواع المدافع الاخرى .

وقد تم اقتحام مبنى الريخستاخ بواسطة فرقة المشاة المعززة (أودرنيكا) الجيش الضارب الثالث وكانت تحت قيادة جنرال واسع الخبرة، وبطل الاتحاد السوفياتي (شاتيلوف) ، وكانت معززة بواسطة لواء الدبابات الثالث والعشرين وعدة وحدات اخرى ، وكان قائد الجيش ف. ا. كوزينتوف الذي كان على اتصال مستمر بي ، يشرف بنفسه على هـذه الموقعة ذات الاهمية التاريخية ، وحوالي الساعة ١٥ من يوم ٣٠ نيسان (ابريل) اتصل بي في مركز القيـادة وأبلغني فرحاً :

– العلم الاحمر يرفرف الآن فوق الريخستاخ ، تحية ايها الرفيق المارشال .

فأجبته قائلاً :

– ايهـا العزيز فاسيلي ايفانوفيتش ، أهنئك من صميم قلبي ، وأهنىء كل جنودك بهذا الانتصار العظيم،ان الشعب السوفياتي لن ينسى ابداً هذه المأثرة التاريخية لقواتك ، ولكن كيف الحال مع الريخستاخ نفسه ؟

قال كوزينتوف :

لا يزال القتال مستمراً فيبعض الحجرات في الطوابق العليا وفي المخابىء . ومع نهاية يوم اول ايار (مايو) لم تعد تتحمل القوات الهتلرية ، وكان قد بقي منها نحـــو ١٥٠ شخص – تواصل القتال – واستسلموا جميعاً وتمّ تطهير الريخستاخ من العدو تماماً .

وعـــين قائد آلاي من الفرقة ١٥٠ هو الكولونيل فيودور ماتفيفتش زنتشنكو قومنداناً للريخستاخ . كانت المعركة من اجل الاستيلاء على برلـين معركة حياة او موت ، فمن اعماق امنا روسيا ، ومن موسكو ، من المدينتين

البطلتين ستالينغراد ولينينغراد ، من اوكرانيا وروسيا البيضاء ، من جمهوريات البلطيق والقوقاز وغيرها من الجمهوريات وصل رجالنا الى هنا ليضعوا خاتمة الحرب العادلة ضد اولئك الذين مدوا ايديهم لينالوا من حرية وطننا !

في اول ايار (مايو) لم يكن قـد بقي في ايدي الالمان سوى تيرجارتن والحي الحكومي حيث يقع قصر المستشارية الذي يمتد تحت فنائه القبو الذي اتخذه هتلر مقراً له .

وفي هذا اليوم كتب مارتن بورمان في دفتر يومياته :

– قصر المستشارية يتحول الى انقاض – قيادة الجيش الاحمر العليا للاتفاق على الهدنة . وفي الساعة الرابعة اتصل بي الجنرال تشويكوف تليفونياً وأخبرني ان الجنرال كربس ذكر له ان هتلر انتحر في الساعة الثالثة و ٥٠ دقيقة من يوم ٣٠ نيسان (ابريل) ثم قرأ خطاباً موجهاً من جوبلز الى القيادة العليا السوفياتية يقول فيه :

بناء على وصية الفوهرر الذي تركنا نخطر قائد الشعب السوفياتي ان الفوهرر غادر الحياة اليوم في الساعة ١٥,٥٠ دقيقة بمحض ارادته . وعلى اساس حقوقه القانونية ، ترك الحكم الى دينيتس وبورمان ولي ، ولقد فوضت بورمان لكي يتصل بزعيم الشعب السوفياتي ، وأعتقد ان هذه الاتصالات ضرورية لبدء محادثات السلام بين الشعبين الذين تحملا اكبر التضحيات .

وسلم كربس وصية هتلر وقائمة بأسماء اعضاء الحكومة الجديدة ، وكانت الوصية بتوقيع هتلر وعدد من الشهود وتاريخها الساعة الرابعة يوم ٢٩ نيسان (ابريل) ١٩٤٥ .

ولأهمية هذا التقرير ، أرسلت مساعدي الجنرال سوكولوفسكي الى مقر قيادة تشويكوف ليفاوضه الجنرال الالماني ، وكان على سوكولوفسكي ان يطلب من كربس ان تقبل المانيا الفاشية الاستسلام غير المشروط .

وفي نفس الوقت اتصلت بموسكو وطلبت ستالين ، ورد على التليفون الجنرال المقيم وأخبرنا بأن ستالين قد توجه الى النوم منذ قليل ، فطلبت منه ان يوقظه لأن الأمر خطير ولا يمكن تركه للصباح .

وبعد لحظات رد ستالين ، فاخطرته بانتحار هتلر ، وعن حضور كربس وعن قراري بتفويض سوكولوفسكي ، وطلبت تعليماته .

أجاب ستالين :

– لقد انتهت حياة هـذا الجبان ، ويا للأسف اننا لم نقبض عليه حياً ، ولكن أين جثته ؟. فأجبته بأن كربس قال انها أحرقت .

فقال القائد الأعلى :

اخطر سوكولوفسكي اننا لا نقبل أية محادثات لا مع كربس ولا مع غيره من الهتلريين إلا اذا وافقوا على الاستسلام غير المشروط .

ثم اضاف :

اذا لم يحدث شيء خطير ارجو ألا تتصل بي حتى الصباح لأنني اود ان استريح قليلاً : فغداً استعرض اول ايار (مايو) .

استعراض اول ايار (مايو) ، مظاهرة اول ايار (مايو) ، يا لهـا من اشياء قريبة لقلب كل انسان سوفياتي ، وخاصة اذا كان بعيداً عن الوطن ، وتصورت بوضوح كيف تتحرك الآن قوات حامية موسكو الى الميدان الأحمر وفي الصباح ستحتل هـذه القوات اماكنها وبعد خطاب ممن يستعرضهم في خطوة عسكرية امـام ضريح لينين وأمام اعضاء الحكومة وأعضاء قيادة الحزب ، سيسيرون امـام الكرملين العتيق وسيمثلون عظمة القوات المسلحة السوفياتية التي حررت اوروبا من الفاشية .

٣

في ضريح لينين وعظماء الكرملين

لم أكن ادرك تماماً مدى حب وتقديس الشعب السوفياتي لقــائد ثورته الاشتراكية لينين إلا في زيارتي هذه، ربما أُتهم بالغلوّ اذا قلت انه ليس هناك شعب تعلق بقائده وأخلص له بمثل مــا فعل السوفيات بزعيمهم لينين ، فما دخلنا موضعاً إلا وجدنا صورته امامنا ، او تمثاله، في وضع ما ، واذا تحدث عنه متحدث منهم شعرت بشحنه الولاء في كل كلمة ينطق بها ، ولهذا لم يكن عجيباً لدينا ان نجــد زيارة ضريح لينين في موسكو والكرملين اول عمل نقوم به .

وفي صبيحة السبت – ثاني يوم لوصولنا – اتجهنا مع مرافقينا الى الساحة الحمراء في قلب موسكو ، تلك الساحة التي شهدت معارك دامية قاسية قادها وأذكى اوارها ابنــاء الثورة المخلصين الجادين ضد القيصر وأعوانه وجنوده المحتمين بقصر الكرملين قرب هذه الساحة .

ولكن «الساحة الحمراء» لم تكتسب هذا الاسم من دماء الثوار التي أُريقت حول الكرملين وفي أماكن اخرى من موسكو ، وإنمــا هو اسم يدلّ باللغــة الروسية على جمال المكان وبهائه !

وعندما اقتربنا من الساحة تطلعت مذهولاً الى هــذه الالوف من الناس في



لینـــین

صفوف طويلة متعرجة لا تدرك اين ابتدأت ، فهي تمتد بامتداد البصر ، وإن جاءت نهايتها عند مدخل ضريح لينين .

ولقد توهمت اولاً ان هـذا الحشد إنما هو لهذا اليوم الذي يعدّ احد يومي العطلة الاسبوعية الرسميـة – السبت والأحد – ولكني تحققت من انه حشد يومي لا ينقطع سيله إن لم يزد ، مـا عدا يوم الأحد الذي يُغلق فيه الضريح ولا يُسمح بزيارته .

ولقد مررت بالساحة الحمراء حيث ضريح لينين مرات عديدة خلال ايامي بموسكو ، فكنت أرى نفس الحشود في ذلك الصف الطويل الذي لا يحدّه النظر، فيخيل إليّ انهم نفس رواد الامس لم يتفرقوا بعد ، ولكنهم في الواقع رواد جدد جاؤوا من مختلف أنحـــاء الاتحاد السوفياتي او خارجه ليزوروا زعيمهم لينين، يزحفون في بطء ، وقد يقضي الواحد منهم بين الاربع والست ساعات في هـــذا الصف ، حتى يجد فرصة الدخول ، ويحمل بعضهم طعامه (سندويتشات) ليتناول وجبته خلال زحفه البطيء وراء هـــذه الحشود الضخمة ، وهو راضٍ مغتبط مـا دام يُتاح له اخيراً إلقاء نظرة على زعيمه لينين في مرقده .

وكان يوم زيارتنا هـذه يصادف الحفل السنوي للرواد الاشبال من طلبة المدارس (الكشافة) ويختار لعضوية الرواد الاطفال والصبية من الجنسين من اول مراحل التعليم حتى المرحلة قبل الجامعية ، ولا يحظى بعضوية الرواد إلا الطلبة الذين توصي عليهم مدارسهم لحسن اخلاقهم ولنشاطهم المدرسي الواضح. وقد امتلأ بهم الميدان الاحمر في ملابسهم الحمراء فكانوا كعصافير الجنـة خفة وروعة !

وسرنا خلف مرافقينا نحو اول مبنى ضريح لينين ، وكان عدد من رجال البوليس هناك ، وكان ضابطهم على علم بقدمنا ، فأفسح لنـا مكاناً في الصف عند المدخل وانتظمنا مع الداخلين ، وكان هذا أبلغ تكريم يقدّم لنا ، فقد

وفروا علينا خمس ساعات على الأقل كنا نقضيها زحفاً لو وقفنا في اول الصف، وعلمنا ان هذا تقليد يُتّبع مع الزوار الذين هم في ضيافة احدى المنظمات التي ترعاها الدولة ، وكنا ضيوف جمعيـة الصداقة السوفياتية السودانية كما ذكرت من قبل .

وعندما دخلنا اول بناء الضريح ، خفتت الاصوات ، وران السكون على المكان فلم نعد نسمع غير قعقعة الاحذية على البلاط .

وعلى طول الممرات كان يقف على ابعاد يسيرة جنود حرس الضريح، كأنهم تماثيل جامدة ، حتى أعينهم يخيل إلي انها لا ترمش .. وقفـة صلبة لا حراك فيها ابداً، وكان منظرهم هذا يدعو للرهبة، وكانوا جميعهم في مستوى واحد، خاصة اولئك الذين وجدناهم حول جثمان لينين ، وقد علمت ان هـذا الحرس الخاص بضريح لينين ينتقى انتقاء ، وان الانتماء اليه يعدّ شرفاً عظيماً ، ويتم استبداله كل ساعة ونصف الساعة . وأعتقد ان هـذه الوقفة الصارمة لرجال الحرس والتي يبدون فيها اشبه بالتماثيل الجامدة ، لا يمكن ان تحتمل الى اكثر من هذا الزمن .

واقتربنا من الغرفة التي يتوسطها جثمان لينين ، والصمت يلفّ المكان إلا من ايقاعات الاحذية ، وقد اتجهت انظارنا جميعاً الى مدخل الغرفة، وما كدنا ندخلها حتى شهدنا لينين على مرقده بوضوح مرتدياً بذلته كاملة حتى الحذاء على رجليه ، ووجهه مكشوف وقد بدا الشعر منحسراً عن مقدمة رأسه الذي سلطت عليه اضواء الكهرباء ليبدو جلياً لناظريه وقد اسدل يديه على جانبيه، ويخيل للرائي انه نائم قد يصحو بعد قليل ، وقد فارق الحياة منـذ اربعين عاماً . وهذه احدى معجزات العلم ، الاحتفاظ بالجثمان في مثل هذه الصورة الكاملة رغم مضي عشرات السنين . وسرنا ببطء حوله ، فالطريق يجعلك تمر بين جانبه الايمن ثم من ناحية رجليه ثم تتجه الى جانبه الايسر ، وفي كل هذا ترى الزوار يمعنون النظر في خشوع وإكبار عظيمين ، وعند نهـاية الجانب

الايسر ينحرف الطريق خارج الضريح متجهاً بناء الى بناء الكرملين حيث يرقد في صف طويل عند سور البناء التاريخي الرجال الذين أدّوا أجلّ الخدمات لوطنهم ، فكرّمهم بدفنهم في سور الكرملين تخليداً وتقديراً لما أدوا لوطنهم من جليل الاعمال . والشعب السوفياتي ، كما شهدت ورأيت بوضوح ، يكرّم ويمجد كل من أدى لوطنه عملاً كبيراً ، ويعمل لإظهار هذا التمجيد في احسن اطار .

كنت اسير في بطء احدق النظر في هذا العبقري الذي هزّ العالم وغيّر مفاهيمه عندما اقام اول دولة اشتراكية في روسيا القيصرية، وقد تبدى امامي شريط عن حياته ونضاله منذ ان كان طالباً حتى انتصرت الثورة التي اشعلها لإزالة دولة التسلط والاقطاع عام ١٩١٧ .

لقد ولد فلاديمير ايليتشن – لينين – في قرية صغيرة تسمى (سيمبيرسك) في يوم ٢٢ نيسان (ابريل) عام ١٨٧٠ ، وهو ثالث وليد في العائلة ، وفي خريف عام ١٨٧١ كان عمره تسع سنوات ونصف السنة عندما دخل الصف الاول في المدرسة الثانوية ، وقد نال خلال فترة دراسته كثيراً من الجوائز المدرسية لتفوقه ، وقد نقش عليها كلمات : « من اجل الاخلاق الحميدة والنجاحات » .

وقبل ان يكمل السادسة عشر من عمره توفي ابوه عام ١٨٨٧ ، وبعد سنة واحدة من وفاة ابيه ، اعتقل شقيقه الاكبر الكسندر – وكان لينين يحبه حباً شديداً – لاشتراكه في محاولة لاغتيال القيصر الكسندر الثالث ، وحكم عليه بالاعدام ، ونفذ الحكم في ايار (مايو) عام ١٨٨٨ . ولا بد من ان يكون اعدام شقيقه قد أثر في نفسه تأثيراً عميقاً، ودفعه للسير بعنف في طريق الثورة ضد ذلك النظام الظالم الذي كان يحكم الشعب حكماً عنيفاً قاسياً ، ويقول مؤرخوه: انه في تلك الفترة – على حداثته – كان واقفاً على كتاب «رأس المال» لماركس ، ومؤمناً بالطريق المرسوم فيه لسير التطور .

ومما يذكر بلاعزار لوالدته انهـا تلقت بشجاعة فائقة صدمة اعدام ولدها الكسندر .

وانتقلت الاسرة من تلك القرية الى (قازان) لالتحاق لينين بالجامعة هناك ، ولكن الفتى الثائر لم يستمر في الدراسة إذ سرعان ما اشترك في ثورة طلابية في جامعة قازان وكان من ابرز قادتها، وعندما اعتقل بواسطة الشرطة قال له قائد الشرطة وهو يقتاده الى السجن :

– ما هذا التمرّد ، أيها الشاب ، ان امامكم جداراً !

فأجابه لينين دون تأمل قائلاً :

– جدار ؟ أجل ! ولكنه متداع وتكفيه هزة لينهار !

وهكذا كان معتداً بنفسه وبقوة الثورة التي كانت تعتمل في داخلـه . وفصل من الدراسة الجامعية بعد اعتقاله .. وانكب يقرأ منفرداً ، يعلم نفسه قالت اخته (حنا) في مذكراتها التي كتبتها عن حياة اخيها لينين ، عن ايامه في قازان ، بعد ان طرد من الجامعة :

« وأتذكر انني عندما كنت اذهب اليه في الامسيات للتسلي في الحديث ، كان يتحدث اليّ بحرارة وحماس كبيرين عن اسس نظرية ماركس، وعن تلك الافاق الجديدة التي فتحها ، واني لاتذكره كما لو كان ذلك الآن ، وكان يجلس عادة على الموقد المغطى ببعض الجرائد ، يتحدث باندفاع مستعيناً بيديـه وحركاته ، وكان ينبثق منه ايمان راسخ يسري الى محدّثه ، وقد كانت عنده منذ ذلك الحين قوة الاقناع والجاذبية » .

وكان هـذا الشاب الجسور على حداثة سنه يقلق رجال قيصر ، فضربوا حوله رقابة بوليسية صارمة ، وفي هذا تقول شقيقته :

« ونتيجة للرقابـة الشديدة التي كانت تحيط باسرتنا ، كان الاصدقاء يتحاشون زيارتنا ما امكن ، وكان هو الذي يزورهم في شققهم » !

وتحدّث لينين عن بعض حوادث فراره من الجواسيس ، فقد كان جيد البصر ، خفيف الخطى ، كان يذكر هذه الحوادث مع قهقهة مرحة ، كانت ممتعة جداً .. من تلك الحوادث التي رواها :

كان الجاسوس يلاحقه بعناد ، ولم يكن لينين يريد ابداً ان يجعله يهتدي الى الشقة التي كان يؤمها ، ولكن لم يجد مفراً ، وعند بوابة بيت من بيوت بطرسبورغ ، لمح لينين مرافقه الثقيل الظل ، فانعطف بسرعة ، وركض وولج مدخل البناية نفسها ، حيث اخذ من هناك يراقب بارتياح معقبه الذي فقد طريده !. وقال : « لقد جلست على كرسي البواب حيث لم يكن احد يراني وكنت ارقب كل شيء في الزجاج امامي ، وضحكت وأنا انظر الى وضعه الحرج ، وكان هناك رجل يهبط من السلالم فنظر مندهشاً الى شخص جالس على كرسي البواب يضحك طرباً » !

ولينين – الطالب الذي اعتقل وفصل من الجامعة ولم يسمح له قط بالعودة اليها ليواصل تعليمه – سمح له – بعد إلحاح ورجاء من امه – ان يؤدي الامتحان النهائي للجامعة – من منازلهم كما نقول الآن – وفي سنة ١٨٩١ قدم الامتحان في جامعة بطرسبورغ، بين دهشة الكثيرين إذ كيف يستطيع طالب مطرود من الجامعة لم يتلق أية مساعدة من الخارج - كما تقول اخته حنا – ان يستعد خلال سنة واحدة مثل هذا الاستعداد الحسن وأن يؤدي الامتحان مع طلبة الصف الذي كان ينتمي اليه ؟ ولقد نجح بتفوق .

واتسع نشاطه الثوري ، وخاصة بين العمال ، وكان لا بد من ان يُعتقل مرة اخرى ويُسجن ، كان ذلك في بطرسبورغ عام ١٨٩٦ . وفي السجن – وكان مسموحاً بقراءة الكتب بعد ان يفحصها المسؤولون – جمع اكثر المواد لكتابة « تطور الرأسمالية في روسيا »، وكان يكتب سراً لزملائه من السجن بطريقة طريفة ، قالت عنها اخته حنا :

« ... اخذ يجرب في السجن الكتابة في الشؤون السرية ، كان إرسال

المناشير السرية بالرموز غير ممكن بطبيعة الحال ، وكان ينبغي استعمال طريقة الكتابة غير الملحوظة التي كان يجري إظهارها خارج السجن ، وتذكـر هو احدى الألاعيب الصبيانية ، فقد اخذ فلاديمير يكتب بالحليب فيما بين سطور الكتب ، وكان إظهارها يقتضي تدفئتها على شعلة المصباح ، وكان قـد أعد لذلك محبرة صغيرة جداً صنعها من الخبز الاسود ، حتى يستطيع ان يبتلعها اذا سمع حفيفاً عند باب السجن . وقد قال لنا ذات مرة وهو يضحك: « ان الحظ لم يؤاته في احد الايام فاضطر ان يبتلع ست محابر بكاملها » .

وفي السجن كتب المنـاشير ، وكتب كراسي « حول الاضرابات » ، ثم كتب مناهج الحزب مع مقدمة تفسيرية مسهبة له . وتقول اخته : ان هـذا المنهاج لم ينشر ، فقد سلمته هي بعد اكماله الى (بوترلسوف) وبعد اعتقاله ، اتلفه الشخص الذي اودع اياه لحفظه . ولكن عثر على بعض اجزاء منـه فيما بعد .

كان لينين بسبب هذا النشاط الثوري الشجاع ، هدفاً مستديماً لرجـال قيصر ، وها نحن نراه في عام ١٨٩٧ محكوماً عليه بالنفي لمدة ثلاث سنوات في سيبريا ، المنفى القاسي الذي خصصه القياصرة لألد أعدائهم، لرداءة طقسه وصعوبة الحياة فيه .

وقد ذكرني هذا بما فعله الاستعمار الانـكليزي بأبطال ثورة عام ١٩٢٤ في السودان، عندما قرر نفي القادة الخمسة: علي عبد اللطيف وعبيد حاج الامين ومحمد عبد البخيت والخليفة شريف وعلي البنا ، الى جنوب السودان ، حيث الاوبئة المنتشرة والطقس الرديء ، لـكي يقضي عليهم هناك ، ولقد قضي على بعضهم فعلا، فما زال جثمان البطل عبيد حاج الامين مدفوناً في ثرى الجنوب، حيث نفـاه الاستعمار البريطاني . وفقد البطل علي عبد اللطيف عقـله لسوء حاله في المنفى .

صراع طويل مرير عاناه هذا الرجل المسجى في هذا الضريح، لقد استراح

بعد ان أرسى قواعد اول حكومة للبروليتاريا في العـــالم ، وأشعل الشعلة الاشتراكية التي ما يزال ضوؤها يزداد انتشاراً في العالم يوماً بعد يوم .

وبالرغم من الدماء التي اريقت حتى تحقق للينين هدفه ، فقـد كان الرجل مؤمناً بالسلام ، يبغض الحرب ويمقتها من اعماق قلبه .

في هذه القصة التي يرويها احد من شهدوا احداث بطرسبورغ – الآن لينغراد – عندما كان لينين يدير الثورة من بناء (سمولين) هناك – وسنقف عنده في هذه المذكرات – وضع احد الفنانين الروس لأول مرة شعار الدولة الجديدة ، وهنا يتأكد لنا حب لينين للسلام ومقته الشديد للحروب . يقول مؤرخ هذه الواقعة في كتابه : « ابناء العاصفة الثورية » ص ٢٥ :

« ان وضع شعار الدولة لبلدنا السوفياتي واجب كبير الاهمية،إذ ان الشعار كان ينبغي ان يتميز بفكرته الداخلية بشكل فاصل عن جميع مـا كان من شعارات الدول الرأسمالية » .

وفي ادارة شؤون مجلس مفوضي الشعب ، ورد رسم الشعار مرسومـاً بالألوان المائية : كان مدوراً ، مع نفس تلك الرموز ، كما هو الآن ، غير انه كان له في الوسط سيف طويل مسلول ، وكأنه كان يغطي جميع الشعار ، كان يغوص بمقبضه في موضع تشابك السنابل في اسفل الشعار ، ويخرج برأسه الحاد الى أشعة الشمس التي تملأ كل الجزء الفوقي من الزخرفة .

كان فلاديمير ايليتشن (لينين) في مكتبه يتحدث مع بعض الرفاق عندما وضع رسم الشعار امامه على الطاولة .. فقال :

– ما هـــذا ؟ الشعار ؟.. جميل ان ننظر ! – وركز نظره على الرسم منحنياً على الطاولة ، نحن جميعاً كنا محيطين به – وباهتمام نظرنا في مشروع الشعار المعروض منقبل فنان من ستوديو مطبعة غورناك (ادارة الدولة لإصدار النقود) .



مكتب لينين في سمولني

كان المنظر الخارجي للشعار جيداً ، على الخلفية الحمراء للرسم سطعت أشعة الشمس المشرقة ، مؤطرة بحزم نصف دائرية من سنابل القمح ، وتراءى المنجل والمطرقة في الداخل بوضوح ، إلا ان سيفاً فولاذياً مسنوناً ماراً خلال الشعار من الاسفل الى الأعلى ، أشرف على الشعار كأنه منذر للجميع !

وقال لينين وهو ينظر الينا جميعاً :

– حسناً !.. الفكرة موجودة، ولكن لِمَ السيف ؟.. واستطرد يقول :

« نحن نقاتل، نحن نكافح وسنكافح، الى ان نوطد ديكتاتورية البروليتاريا

ونطرد الحرس الابيض والمتدخلين من حدودنا، إلا ان هذا لا يعني بأن الحرب، الطغمة العسكرية والعنف الحربي، ستسود عندنا في وقت ما .. لسنا بحاجة الى الفتوح ! سياسة الفتح غريبة علينا بالتأكيد، نحن لا نهاجم، ولكن نردّ هجمات الأعداء الداخليين والخارجيين، حربنا دفاعية، والسيف ليس رمزاً لنا !.. يجب ان نمسكه بقوة الأيدي، لكي ندافع به عن دولتنا البروليتاريا ما دام لا يزال يوجد عندنا أعداء، ولا يزالون يهجمون علينا، ويهددوننا، إلا ان هذا لا يعني بأن هذا الحال سيكون دائماً ... الاشتراكية ستنتصر في جميع البلدان – لا شك في هذا – وأخوة الشعوب ستكون معلنة ومحققة في كل العالم، ولا حاجة بنا الى السيف ! انه ليس رمزنا ».

وعاد لينين يقول :

« يجب علينا ان نبعد السيف من شعار دولتنا الاشتراكية ... وبقلم اسود مبري بدقة حذفه بإشارة تصحيح مطبعية، معيداً الاشارة الى الهامش الأيمن للشعار ! . ووقع على الرسم » !...

وشعار الدولة لجمهورية روسيا الاشتراكية الاتحادية أقرّ في اول بداية عام ١٩١٨ .

من قصة الشعار هذه، ومن أحاديث لينين عن السيف ورفضه ان يكون شعار الجمهورية الوليدة يتبين لنا بوضوح أصالة مشاعره نحو السلام وكراهيته للحروب إلا دفاعاً عن المبدأ والوطن .. كما يؤكد حديثه هذا ايمانه العميق بأخوة ابناء الشعوب وعدم حاجتهم للحروب متى ما ظللتهم الاشتراكية ...

وسنلتقي كثيراً فيما بعد بهذا الرجل الفذ .

وخرجت من ضريح لينين لأتطلع الى الكرملين، هذا البناء التاريخي الذي كان مقراً للقياصرة، ايام أمجادهم وبذخهم وترفهم، ثم صار مقراً للمجلس الأعلى للاتحاد السوفياتي وحكومته، وعلى سوره مقبرة العظماء من ابناء الشعب الذين كان لهم أثر في حياة هذا الشعب .



في الكرملين

كان الكرملين عندما كان يسكنه القياصرة - وقد بنوه منذ ثمانية قرون بناء خشبياً عظيماً، ومنذ قرنين ُبني بالحجر على وضعه الحالي – وكنت أتطلع اليه من أعلى الى أسفل ، ومن كل جوانبه التي تواجهني ، فيتبـــدى لي تاريخ حافل وعظات وعبر .. فقد كان للقياصرة فيه شأن وأي شأن ، وما كان يدور في خلدهم قط ان الشعب سوف يسلبه منهم يوماً مـا ، ويكون مقراً لحكومة من العمال والفلاحين الذين كانوا مجرد خدَم لهم !

كان صف الزوار الطويل الذي أتم طوافه بمرقد لينين يزحف بنفس البطء على جانب سور الكرملين حيث مقـابر الرجال الأفذاذ الذين أُريد تكريمهم بدفنهم في هـذا المكان التاريخي . وكانت أنظارنا مشدودة الى أدنى السور

حيث وضعت عليه لوحات تحمل اسم كل دفين وموجزاً لتاريخه ، وتحت كل لوحة كنا نرى ازهاراً يانعة غضة وضعها على القبر المعجبون بـه من الطائفين بالسور تحية وتقديراً ، لم يخل قبر واحـد من باقات الزهور ، وكان مرافقونا يشيرون الى مقابر المشاهير كلما دنونا منهم، وقال مرافقي وهو يشير الى لوحة قبر : ستالين ! ونظرت اليه في أسى ، كان هنـاك زهر غض تحت اللوحة . لقد كان المفروض ان نجده هناك مع لينين في حجرة واحدة ، كما فعلوا بـه اولاً ، ثم نزلوا به درجات فجاؤا به هنا . لقد صارت (الستالينية) مذهباً في الحكم يدل على القسوة والجبروت والتفرد .

وقد مررت قبـله بلحظات بقبر الكاتب العظيم مكسيم جوركي الصديق الحميم للينين ، وقلت في نفسي : لقد تساويا مرقداً واختلفـا أثراً ! ويا ويح رجال الحكم والسياسة من حكم التاريخ .

وعند مرقد جوركي تذكرت قولته المشهورة عن الثوريين الروس :

« هم ظاهرة لا اعرف مثيلاً من حيث جمالهم الروحي،وقوة حبهم للعالم».

وقال مؤرخوه : ان حياته كلها كانت مرتبطة مع الحركة البروليتارية ، وكان على صلة شخصية ووثيقة بعدد كبير من الثوار البارزين في ايامه .

ولم تكن رواية « الأم » التي ترجمت الى اكثر لغات العالم ، وحفلت بهـا مكتبتنا العربية ، إلا سيرة حياة الثوري الروسي (بيوتر زالوموف) وأمه اللذين كان يعرفهما شخصياً، وكان صديقاً لهما ، وقالوا انه ظل وفياً لهما، حفياً بصداقتهما حتى فارق الحياة عام ١٩٣٦ ، وقد ولد جوركي سنة ١٨٦٨م .

ومن اعماق قلبي حييت الكاتب القصصي العظيم (مكسيم جوركي) الذي صار مدرسة في فن القصة يتقفى اثرها كبار كتّاب القصة في شتى انحاء العالم.

وواصلنا زحفنا البطيء في ذلك الصف الطويل الذي يخيل اليك ان ليست له نهاية او بداية ، فهو متصل ابداً ، حاشد ابداً ، منذ الصباح الباكر ، ولا



جانب من جدار المقبرة

تحسبن اننا نطوف بمقبرة موحشة يقبض النفس مرآها ، ونضيق ذرعاً بهـا ، فقد حفّ المكان بالزهر والشجر ، وغاب منظر الارض تحت بساط سندسي اخضر ، والجو لطيف منعش ، وقد انتشرت اشجار (اليوكا) في كل بقعة ، وهي الشجرة التي يرفعها المسيحيون في عيـد الميلاد ، جميلة المنظر ، لا ترتفع كثيراً عن قامة الانسان ، وهذا النوع منها الذي زرع في الكرملين جيء به من سيبريا ، ويعدّ من اروع اشجار (اليوكا) في العالم .

كان امامي في الصف رجل روسي لعله في الحلقة السادسة من عمره يعرج في مشيته حتى يتقوّس جانبه الايمن ، وكان يحمل بين يديه باقـة صغيرة من

الزهر ، تتكوّن على وجه التحديد من زهرتين فقط ، كان يضمها الى صدره حانياً ، وكنت أرقبه باهتمام لأرى ماذا يريد بهذه الباقة الصغيرة من الزهر ، وظل يزحف مع الزاحفين ، ويضم باقته في حنو، وقال مرافقي : امامك قبر (غاغارين) بطل الفضاء المعروف، وما كدنا ندنو من قبر قاهر الفضاء ، حتى رأيت الرجل الاعرج ينفلت من الصف ويقف امام القبر وقد خلع قبعته ثم انحنى في خشوع بالغ ووضع الزهرتين على القبر . ثم انتصب واقفاً كالتمثال وكأنه لا يشكو العرج ، وخفض رأسه ورفعه بسرعة عدة مرات تعبيراً عن تقديره البالغ للبطل الصريع ، ثم عاد للصف ليكمل رحلته وقد بدا عليه الصفاء النفسي ، لأنه أدى واجب التكريم للبطل الصريع .

صورة حية ناطقة أثرت في نفسي تأثيراً بالغاً وأكدت لي ما يكنه هذا الشعب من ولاء صادق ومحبة اكيدة لكل الذين عملوا لرفعته .

وذكرت في أسى ابطالنا الذين فدوا وطننا بأرواحهم ، كيف نسيناهم وتنكرنا لهم ولذكراهم .

وطافت بذهني – كمثل لهذا الجحود المنكر – صورة البطل عبد الفضيل الماظ ، الذي ظل وحده ، في مدينة الخرطوم ، بمدفعه يحارب فرقة انكليزية كاملة يوماً كاملاً، ولم يستطيعوا ان ينالوه، وقد اردى العشرات منهم بمفرده، إلا بعد ان هدموا عليه مبنى المستشفى الذي كان يعتصم به ، فمات تحت الأنقاض ، وذكرت اسرة هذا البطل الذي لو كان في بلد آخر يقدّر البطولة والتضحية لكان له في كل بلد تمثال ، ولعاشت أسرته أهنأ عيش ، ولكن زوجة هذا البطل تعيش بيننا اليوم وهي تبيع « الكسرة » لتجد القوت الضروري ، ومع هذا فنحن نتحدث عن البطولة والفداء .

فيا ايها الرجل الاعرج عند سور الكرملين الذي زحف على رجليه ست ساعات متوالية ، رغم عرجه ، ليجد فرصة وضع زهرتين غضتين على قبر (غاغارين) ، لقد اهديتني صورة رائعة للوفاء وتقدير البطولة .

٤

جولة في متحف لينين

لمرة الثالثة خلال اليومين الاولين أعبر الساحة الحمراء الواقعة امام الكرملين لأرى هذه الصفوف الطويلة المتزاحمة تزحف في بطء نحو ضريح لينين لتلقي نظرة عليه ، لقد صار المنظر مألوفاً لديّ ، وقد تكرر بعد ذلك طوال ايام وجودي في موسكو .

وفي هذه المرة نعبر الساحة الحمراء ونحن نتطلع الى بناء الكرملين التاريخي في طريقنا الى متحف لينين .. ألم اقل لكم ان الشعب السوفياتي تعلق بلينين الى درجة تقارب التقديس ؟ فما من مكان يخلو من صورته او تمثاله .

وهذا المتحف الذي يضم كل شيء عن حياة لينين منذ طفولته حتى انتصار ثورته وتأسيس حكومته وما بعدها ، يقع في قلب موسكو ويعد من أهم المتاحف التاريخية في الاتحاد السوفياتي ، وهو ايضاً مزدحم بالزوار طوال الساعات التي يظل فيها مفتوحاً .

والمتحف ، بناء ضخم يتكون من عدة طوابق ، وكل طابق يحتوي على العديد من الغرف ، وكل غرفة تضم العشرات من الصور والتماثيل والصحف والكتب والاوراق التي كان من العسير علينا ان نقف عندها جميعاً ، فكنا نمر على بعضها مروراً عابراً مكتفين بما يلقى علينا من مرافقينا من معلومات

موجزة عن محتوياتها ، ويقسرنا بعضها لأهميته التاريخية او لروعته الفنية لكي نقف ملياً نتأمله – وكما ذكرت فقد ضم المتحف كل شيء عن حياة لينين ، ومن غير المستطاع ان اقدم هنا صورة لكل ما شهدت، ولكني سأقدم عرضاً موجزاً لأهم ما انطبع أثره في نفسي .

كان لينين طالباً ممتازاً ، تشهد بذلك شهادته المدرسية التي وضعت في إحدى غرف المتحف ، وقد وضعت بجانب شهادته المدرسية الثانوية المدالية الذهبية التي منحها بسبب امتيازه المدرسي ، وكان ايضاً طالباً ثورياً فإنه ما كاد يلتحق بجامعة قازانيا على نهر الفولجا ، حتى ألقي عليه القبض وأودع السجن وكان في الثامنة عشر من عمره ، وقد علقت على الجدار صورته وهو طالب سجين ، وقد حيل بينه وبين اتمام الدراسة الجامعية ، ولكنه استطاع وهو في السجن ان يدرس وحده وأن يجتاز الامتحان بصورة ممتازة ، وفي الغرف التي طفنا بها العديد من المذكرات والرسائل التي كتبها لينين بخط يده وما تزال كما تركها .

وهناك صورة رائعة له وهو يبذل اولى محاولاته في تدريس الماركسية للعمال والموظفين والفلاحين وقد تجمع بعضهم حوله ينصت اليه في اهتمام وهو يتحدث في حماس بالغ تشهد به تقاطيع وجهه التي أجاد الفنان رسمها معبراً عن مدى انفعاله وإيمانه بما كان يلقيه .

وفي حجرة ملاصقة شهدنا مجموعة الكتب التي قرأها لينين أثناء دراسته ، وبجانبها لوحة تحمل اول كتاب ألفه عن الاشتراكية، وصورة ضخمة مع اول انصاره في المرحلة المبكرة للثورة الاولى في اول تنظيم قام به لينين وقد قتل عدد منهم بعد احكام الرقابة على نشاطهم من قبل البوليس –بوليس القياصرة– وصورة اخرى ضخمة للينين عندما اعتقل للمرة الثانية في بيترغراد عام١٨٩٥ عندما كوّن اول منظمة عمالية في تلك المدينة وسماها « اتحاد النضال من اجل تحرير طبقة العمال » .

وصورة اخرى له عندما نفته حكومة القياصرة الى سيبريا بسبب نشاطه في نشر التفكير الاشتراكي بين العمال والموظفين والفلاحين وهجومه على حكومة القياصرة والاقطاعيين ، وقد رأينا نموذجاً دقيقاً للمنزل الصغير الذي احتواه في المنفى في سيبريا .

وفي المنفى ، في هذا المنزل الصغير ، كان ينتظر قدوم تلك الفتاة المجاهدة التي قبلت الزواج منه في منفاه - تاديجدا كروبسكايا - فسافرت الى سيبريا وتزوجته هناك وظلت تعمل معه وتشد من أزره وتواجه معه المعارك التي وشكت ان تقضي عليه حتى انتصر ، كانت سيدة قوية العزيمة مثقفة عاشت مدى ١٢ عاماً بعد وفاته وكانت من اعضاء الحزب الشيوعي المناضلين ، وقد ألفت تاديجدا كتاباً وجدناه أمامنا عن الثورة أسمته « لينين والحزب » .

ومن سيبريا نفي خارج روسيا ونقل الى المانيا ، وفي إحدى الحجرات شهدنا اول صورة اصلية للجريدة « اسكرا » - أي الشراره - التي اصدرها في المانيا بالانجليزية وحيث قضى هناك عدة سنوات ، وكانت هذه الجريدة تهرب سراً الى داخل روسيا ، وقد وجدنا إحدى « الشنط » التي كانت تهرب في داخلها الى روسيا ، وقد خصص لها مخبأ سري داخل الشنطه التي تبدو عادية المظهر من الداخل والخارج !. ولعل هذا الاسلوب السري الذي كان يعمل به لينين وأنصاره في البداية هو المدرسة الاولى التي استمد منها الشيوعيون في كل مكان اساليب عملهم السري !

وبجانب الجريدة، على الجدار صورة كبيرة لمحرريها السبعة يتوسطهم لينين وزوجته التي كانت تعاون في التحرير !

وفي إحدى الحجرات رأينا مدفأتين وهما من بقايا المنزل الذي كان يسكنه لينين في لندن عندما هاجر اليها ، أهدتها الحكومة الانجليزية لروسيا ، والمدفأتان هما كل ما بقي من المنزل الذي كان يقطنه في لندن بعد ان هدمته الطائرات الالمانية في الحرب الاخيرة .

كما أهدت حكومة المانيا الشرقية في عام ١٩٦٧ ماكينات الطباعة التي كان يطبع عليها لينين وأعوانه جريدة « شراره » السرية ، ومـا تزال الماكينات في المتحف على نفس الحالة التي كانت عليها .

ولمـا كان لينين من هواة لعبة الشطرنج ، فقد ضم المتحف الشطرنج الذي كان يباري بـــه هواة هذه اللعبة .. ولكن مهلاً ، فإن لينين وهو يمارس هوايته في اللعب ، يستغلها ايضاً لتحقيق أهدافـــه السياسية ، فتحت رقعة الشطرنج العادية المظهر صنع مخبأ سرياً يضع فيه بعض اعداد جريدته السرية. الشراره ! ألم اقل انه المدرسة الاولى للنشاط الشيوعي السري ؟

ودخلنا قاعة ضخمة تحتوي على كل ما يتعلق بالثورة الروسية الاولى ضد الحكم القيصري التي نشبت عام ١٩٠٥ ، وقد افلح الفنانون الروس العظام في تسجيل كل مظاهر هذه الثورة وانفعالاتها في رسوم معبرة رائعة للغاية ، محال ان يصور روعتها هذا القلم .

ففي اول القاعـة صورة كبيرة رائعة ، لمظاهرة ضخمة تضم جموع العمال والموظفين، وقد احتشدوا امام قصر القيصر – الكرملين – يطالبون بتحسين اوضاعهم المادية ، وأغضب القيصر هذا التظاهر وهذا المطلب ، فأمر جنوده بإطلاق الرصاص عليهم ، وتطاير الرصاص يحصد المتظاهرين الذين كانوا بقيادة قسيس روسي، فقتل ألفان من المتظاهرين غير الجرحى الذين لم يحصر عددهم ، وكانت هـــذه المذبحة حافزاً قوياً للشعب لكي ينفجر احتجاجاً !. وكانت الثورة الشعبية الاولى التي وأن لم تثمر من حيث القضاء على حكم القيصر إلا انها ملأت النفوس حقداً عليه واستعداداً لمواصلة النضال .

ولقد أجاد الفنان الى حد مذهل وهو يسجل هذا المشهد التاريخي في لوحة كبيرة من العسير عليك ان تتخطاها ما لم تقف عندها طويلاً .

وتأتي الصور التي تعـبر عن غضبة الشعب وثورتـه في مختلف الاوضاع ، وترى وجـوه الفلاحين والعمال تنطق بالتصميم والتضحية للقضاء على الحـكم

القيصري والاقطاع ، رغم ضحايا المعارك المتتالية والتي تحدثك عنها هذه الصوَر المعبرة التي احتشدت على الجدران .

ومن جيد ما شهدت، الرسومات التي عبرت عن صدى الثورة الروسية عام ١٩١٧ خارج روسيا ، في الصين وايران وتركيا والهند ومصر ، ألوان من المظاهرات الشعبية أثارتها ثورة الشعب الروسي ضد حكم الاستبداد والظلم والقهر .

وبعد ان انتصرت حكومة القياصرة على ثورة الشعب عام ١٩٠٥ اشاعت جواً رهيباً من التنكيل والقهر والتقتيل ، وهنا تواجهنا لوحة تاريخية تصور لينين يغادر وطنه خفية وفي شتاء مرعب ، خوفاً من القبض عليه وإعدامه ، وقد اتجه الى سويسرا بعد ان القي القبض على عدد كبير من زملائه الثوار أعدم بعضهم ونفي الآخرون الى سيبريا .

وظللنا نطوف في هذه الحجرة على المشاهد التاريخية التي سجلها الفنانون ليجعلوا تاريخ هذه الحقبة سهل التناول عن طريق هذه الصوَر الدقيقة المعبرة التي لم تترك صغيرة او كبيرة من تحركات الشعب ليتحرر من ذل حكم القياصرة وجشع الاقطاع إلا وسجلها في دقة بارعة .

ولكم اكثرت من التمني في هذه القاعة التاريخية ان لو كان لنا فنانون يعنون بتاريخنا ويسجلونه مثلما سجل الفنانون الروس وثبات الشعب من اجل تحقيق العدالة .

وأعادتنا الى الحياة الانسانية البسيطة غرفة مجاورة ، ضمت لوحات جميلة للمدينة الصغيرة التي وُلد فيها لينين واسمها (سيمبيرسك) وهناك شهدنا الغرفة التي وُلد فيها لينين، وهنا ، ولأول مرة، اعرف ان اسم لينين اسم مستعار، وأن أسرته تسمى (اوليانوف) ، وقد سميت المدينة الصغيرة ، بعد ان صرع لينين القياصرة والإقطاع ، باسم أسرة لينين، فهي الآن (اوليانوفسك) بدلاً من الاسم القديم ، تكريماً لذكرى لينين .

وهناك لوحة جميلة ، يرى فيها لينين مع صديقه الكاتب المشهور مكسيم جوركي يصيدان السمك في البحر في ايطاليا .

والمعروف انه كانت بينهما صداقة قوية رغم ان جوركي لم ينضم – كعضو – الى الحزب الشيوعي ، ولكنه كان يتعاطف مع الحزب ، ويعجب بلينين كل الاعجاب ، ويتجاوب مع مبادئه ونظرياته .

ما زلت احدثكم عن متحف لينين بموسكو ، ذلك المتحف الذي جمع فيه كل شيء من حياة لينين ، منذ طفولته حتى لحظاته الاخيرة في الحياة ، وقد ابدع الفنانون السوفيات في اخراج جوانب من حياة لينين وخاصة ما يتعلق منها بالثورة في لوحات بلغت حد الروعة .

وما زلت اذكر انني وزميلاي السيدان بابكر محمد علي وعمر الفاروق تسمرت اقدامنا امام لوحة رائعة ملأت جدار حائط الغرفة كله، رسمها فنان روسي بعد انتصار الثورة الشعبية في روسيا تمثل لينين وهو يخطب في جمهرة من العمال من منبر في اكبر مصنع في بيترغراد الآن (ليننغراد)، يرسم لهم الخطط للوصول ولتحقيق النظام الذي يتمتع بتأييد الجماهير ، واللوحة الرائعة سجلت وجوه ستمائة عامل في ذلك الحشد ، كل وجه يختلف عن الآخر ، وكل وجه ينطق بمدى انفعاله لما كان يسمع من لينين ، وقيل ان الفنان الذي رسم هذه اللوحة الرائعة – واسمه بروتسكي – قضى في رسمها ثماني سنوات، ست سنوات منها يحضّر ويخطط ، واثنتان للتنفيذ ، ولهذا جاءت تحفة فنية رائعة .

واني لشديد الاسف لجهلي بالأصول الفنية التي تمكنني من تقديم كل هذه اللوحات الرائعة التي حواها هذا المعرض الحافل ، وقصارى ما استطيع ، ان اسجل بقدر المستطاع الأثر النفسي الذي احدثته وأنا أتنقل بينها مبهوراً.

وفي احدى غرف المتحف ، داخل (دولاب) زجاجي وضعت احدى (بدل) لينين التي كان يرتديها ، وقد صنعت من قماش عادي متواضع ، وقيل



غرفة لينين في سمولني

ان هذه البدلة كان يرتديها في فترة منفاه بعيداً عن روسيا ، وبجانب البدلة وضع حذاءان وشنطة صغيرة وقبعة سوداء متواضعة المظهر ، وكلها مما كان يستعمله .

بجانب هذه الآثار ، لوحة ضخمة ترمز للثورة الشعبية الثانية التي حققت اهداف لينين في ازالة حكم القياصرة ، ولهذا سمى الفنان هـــذه اللوحة « قد تحققت » – اي تحققت اهداف الثورة – واللوحة تمثل فلاحاً روسياً يرتدي الزي العسكري يحمل بندقية ويقف في صالون قصر القياصرة أمام مقعد القيصر ، رمزاً لانتصار الشعب .

ان متحف لينين يتكون من ٢٢ قاعة كبيرة في طابقين ، امتلأت كلهـا بالآثار واللوحات والتماثيل عن لينـين ، وليس من المستطاع – كما ذكرت –

عرض كل ما شهدناه في هذه القاعات ، وانما اكتفيت بتقديم بعض النماذج لما شهدت ، وليتني استطيع الوقوف عندها كلها فهي جديرة بذلك حقاً .

وقد كان من بين ما استرعى انظارنا في هذا المتحف سيارة لينين الاولى التي كان يستعملها في عامي ٢١ – ١٩٢٢ ، وهي ما تزال بحالتها التي كانت عليها تحتل ركناً من المتحف التاريخي . وقد جاء بها الى المتحف نفس سائقها الذي كان يعمل مع لينين ، جاء يقودها في شوارع موسكو قاصداً المتحف في عام ١٩٣٦ وقد اعترضه البوليس واستوقفه لغرابة مظهر السيارة التي كان يقودها ! ثم اذن له لما عرف حقيقة هذه العربة التاريخية الشاذة المظهر ، وما زالت وعلى جانبيها (عجلتان) « اسبير » ! وزلاقه مما يستعمله الناس هناك في الشتاء المتجمد .

كان المعرض يزخر بالزوار من الجنسين في مختلف الاعمار . وكان ختام الزيارة ان عرض علينا في غرفة خاصة بالعرض السينمائي ، فيلم اخذ للينين وهو حي ، وقيل انه أخذ له خلسة ، وهو يمثله في مواقف عدة ، فقد كان لينين كما حدثونا يكره الدعاية لنفسه ، وقالوا انه لو علم آنذاك أن مصوراً سينمائياً يلتقط له عدة مشاهد لرفض ذلك ، ولأمر باعدام ما سجل عنه !

وقد كان الشريط السينمائي يسجل الكثير من حياة لينين ، يصوره وهو يخطب في الجماهير الغفيرة الهادرة ، او يجلس مع بعض الرفاق ، او يتنزه . والفيلم في الاصل، صامت ، لكن أنطقوه في بعض مواقفه ، وكان ختام الفيلم لينين في لحظاته الاخيرة ، في القرية التي كان يعالج فيها من إصابته – قرب موسكو – فقد حاول احد أعدائه اغتياله في عام ١٩١٨ إذ أطلق عليه ثلاث رصاصات، ظل يعاني منها مدى ثلاث سنوات حيث تدهورت صحته بعدها. وقد سجل الفيلم مشهد جنازته محمولاً على الأعناق تخرج من تلك القرية الصغيرة التي التمسها لحسن مناخها . وكان البرد قارساً والجليد يغمر الارض ومع ذلك فقد أصرّ الناس على حمل النعش والسير خلفه على أرجلهم لمسافة طويلة ، من

القرية حتى موسكو ، وكانت درجة البرودة ثلاثين تحت الصفر !.. وظلّ في التابوت اربعة ايام وليلة في مركز النقابات ، والشعب يمرّ به مودعاً لم ينقطع سيله لحظة . وعلى التابوت أكاليل عديدة منها اكليل صديقه الكاتب العظيم مكسيم غوركي ، وقد كتب عليه « لصديقي من غوركي » ، وكانت أعلام الحداد السوداء تملأ الغرفة وتحيط بالتابوت .

وفي غرفة مجاورة لصالة العرض السينمائي كان هناك نموذج دقيق لمقبرة لينين المؤقتة – قبل نقله لضريحه الحالي – وهي من الخشب الجميل. وفي غرفة اخيرة من المتحف ، وضعت في وسطها كرة ارضية ضخمة تدور اوتوماتيكياً في بطء ، وتحيط بها من كل الجدران الاربعة مؤلفات لينين التي طُبعت في ١١٩ لغة ، وضعت كلها في هذه الغرفة في دواليب زجاجية ضخمة ، وقد رأيت بعضها بالحروف العربية ، والكرة الارضية التي تتوسط مؤلفات لينين ترمز الى ان تعاليمه وأفكاره قد انتشرت في كل أنحاء العالم .

ان متحف لينين قد أُنشىء في عام ١٩٣٦ ، وقد زاره منذ إنشائه حتى هذا العام (ايار – مايو – ١٩٦٨) اكثر من ثلاثين مليون زائر من الاتحاد السوفياتي وخارجه . وانه لجدير باحتشاد الزوار واحتفائهم للقيمة التاريخية والفنية التي تتجلى في كل قطعة من محتوياته ، وهو سجلّ حافل لتاريخ رجل من أعلام التاريخ الانساني .

٥

مع رواد الفضاء في المعرض

ما زلت أكتب عن ايامنا في موسكو قبل ان ننتقل منها الى الجمهوريات الاخرى . وموسكو يسكنها اليوم قرابـــة سبعة ملايين ونصف المليون من البشر، وتعتبر من حيث تعداد السكان خامس مدينة في العالم، وتحتل مساحة تقدّر بنحو سبعمائة كيلومتر مربع ويقولون انها بنيت في القرن الثاني عشر، ولم تكن عاصمــة لروسيا طوال عهود القياصرة ، كانت العاصمة بطرسبرغ ، ولكن القياصرة كانوا يعتبرون موسكو العاصمة الثانية لدولتهم ، ويحضرون اليها في أشهر معينة من السنة ، وقد بنوا قصر الكرملين – منذ ثمانية قرون ليكون مقراً لهم عندما يقضون ايامهم في موسكو ، ولم تتحول موسكو الى عاصمة لروسيا إلا بعـــد انتصار البلاشفة بقيادة لينين في ثورة تشرين الاول (اكتوبر) الاشتراكية عام ١٩١٧ .

كان في برنامج زياراتنا في يومنا الثـــاني لموسكو ان نذهب الى معرض المنجزات الاقتصادية للاتحاد السوفياتي، الذي يضمّ ٧٨ جناحاً مختلفاً، والهدف من هذا المعرض نشر التجارب العلمية وإدخالها لدى جمـاهير العمال والفلاحين للاستفادة منها في حياتهم اليومية ، وليوفر لكل منهم التجربة العلميـــة التي تساعده على وفرة الانتاج .



امام تماثيل رجال الفضاء

وفي الواقع اننــا أينما ذهبنا وجدنا الاستفادة من التجربة العلمية اساس كل عمل ، فما من عمل إلا وله أسس علميــة سليمة يقوم عليها ويسير على هديها ، فلا مجال للارتجال ، ولا ابتداء لعمل بغير خطة مدروسة .

وقبل ان ندخل ساحة هــذا المعرض الذي يشغل مساحة كبيرة تجعله أشبه بمدينة صغيرة، كان امامنا على شارع أنيق يفضي للمعرض مباشرة، تماثيل ضخمة لجميع رواد الفضاء من ابناء الشعب السوفياتي . ألم أقل ان هذا الشعب

يحب الذين يعملون من اجل رفعته ويكرمهم أحيـاء وأمواتاً ؟ فهذه التماثيل الشامخة لكل رواد الفضاء، أقيمت للأحياء منهم والأموات معاً . وقد قامت بجانبهم مسلة طويلة في أعلاها صاروخ متجه للفضاء ، وقـد صنعت من نفس المواد التي تصنع منها صواريخ الفضاء والتي لا ينال منها البلى، والمسلة والصاروخ رمز لتصميم السوفيات على اقتحام الفضاء الى أقصى غـاية يمكن ان يصل اليها العلم !..

وبعد ان شاهدنا تماثيل رواد الفضاء ، اتجهنا الى المعرض وقد أُنشئت على واجهته (بوابة) ضخمة عالية، عليها صورة رائعة في حجم الواجهة الضخمة لرمز السوفيات المعروف : عامل ، وفلاح يحمل سنابل القمح تأكيداً للتعاون بين العمال والفلاحين لتحقيق وفرة الانتاج بشقيه الصناعي والزراعي .

والمعرض اساساً مقـام في حديقة واسعة يرتادها الناس للترويح في ساعات الفراغ ، وليس من السهل الطواف على كل أجنحته الكثيرة المتعددة الجوانب، كأجنحة تربيـة الحيوان ، والدواجن ، والسمك الذي خُصصت لبعضه برك ضخمة سُمح للجمهور باصطياده منها ، إذ يتوالد فيها بكثرة ، وقـد شهدت بعض الزوار جلوساً على حافاتها وبأيديهم السنارات يصيدون السمك من هذه البرك التي ضمَّها المعرض !.. كما قـام بجانبها مطعم لا يقدم لزواره غير ألوان طعام من السمك فقط.. كما شهدت بحيرات اخرى لرياضة التجديف، والشباب عليها يستمتع بهذه الرياضة المحببة .

وهنـاك أجنحة للتبغ ، وأخرى لألوان من الخمور ، والفاكهة والخضر ، وكثير من الانتاج الزراعي ، وهنـاك اشجار يجرون عليها تجارب معينة حتى لا تتعرى أعضاؤها من الاوراق في فصل الشتاء، كما يحدث الآن لجميع الاشجار في الاتحاد السوفياتي اذ تبدو في الشتاء كالعصي مجردة من الاوراق تمامـاً ، وتقوم في المعرض أجنحة كثيرة توضح التجارب العلمية ، للتنقيب عن المعادن والنفط .. الخ...

أكذب ان قلت انني استطيع ان اعطي صورة متكاملة لهـذا المعرض العلمي العظيم ، فاني لم أطف عليه كله لأن ذلك يستوجب التردد عليه لأيام عديدة ، وهذا ما لم يتسع له وقتنا .

ولكننا اتجهنا الى جناح هام، أقيم في منتصف ساحة المعرض، وهو الجناح الذي خصص لعرض التجارب التي تمت حتى الآن في مجال ريادة الفضاء .

وقبل ان ندخل هـذا الجناح رأينا امامه سفينة فضاء ضخمة ارتفاعها يقرب من الاربعين متراً ، وقال مرافقونا انها نفس السفينة التي حملت غاغارين للفضاء ، فوقفنا نتأملها ونطوف حولها مكبرين ما وصل اليه العلم من تقدم ، ومـا بلغه بعض الناس من الشجاعة الخارقة ، كهذا الفتى غاغارين الذي خلد اسمه في التاريخ .

وقال مرافقونا ، وهم يشرحون لنا بعض اجهزة هـذه السفينة الفضائية الضخمة ، ونحن نتأمل اجهزة التحرك فيهـا ، قالوا : ان قوة محركاتها تبلغ عشرين مليون حصان .

ودخلنـا الجناح الضخم الذي وُضعت فيـه جميع السفن والصواريخ التي طافت بالفضاء منذ اول محاولة حتى آخر محاولة في ذلك التاريخ .

لقد بهرنا العلم والله ! وطفت حول هذه المخترعات في خشوع بالغ تكريماً للعقل البشري الذي صنع هذه المعجزات ، وتمجيداً للإله الخالق الذي وهب الانسان هذا العقل .

لقد كان في المقدمة اول قمر صناعي اطلقته روسيا للفضاء وذلك كان في عام ١٩٥٧ ، وقد بـدا صغيراً ودقيقاً بجانب الاقمار الاخرى التي امتدت في صفوف متراصة بعده ، تؤكد للزائر مدى التقدم الرائع الذي أحرزه العلم في انتصاره على الفضاء في سنوات قصيرة ، تبدو ضئيلة حقاً بجانب خطوات هذا التقـدم العلمي السريع البادي أمامك ممثلاً في هـذه الأقمار والصواريخ التي

ما فتئت تجتاز مرحلة بعـــد مرحلة في ارتياد الفضاء حتى حطت اخيراً على سطح القمر ، وما تزال تعمل للمزيد من الانتصار .

وبجانب هـذا القمر الاول ، وضع القمر الثـاني ، بوضعه الطبيعي ، وفي داخله قبعت الكلبة « لايكا » في حجمها وشكلها الطبيعيين تنظر اليك بعينين لا تحس فيهما بالجمود ، ويخيل اليك انهـا تزهو امامك بما حققته من اول نصر لكائن حي يرود الفضاء ثم يعود سالماً !..

لقــد صنع الفنانون السوفيات لايكا اخرى حية تخليداً لتلك التي وهبت العالم اول تجربة حية في عالم الفضاء .. كانت لايكا الفنانين قابعة داخل قمرها ترسل نظرات كلهـا زهوّ وبطر وهي تحدق في الزوار من داخل القمر الذي كان يقلـّها !

ففي تشرين الثـاني (نوفمبر) عام ١٩٥٧ ارسل العلماء السوفيات الكلبة لايكا الى الفضاء وزوّدوا مركبتها بالآلات العلميـة الدقيقة لسبر غور الفضاء ومعرفة الحالة الطبيعية والنفسية والمؤثرات التي تطرأ على الحياة البشرية خلال السفر للفضاء .

وقد عادت لايكا من رحلتها الفضائية مزوّدة بالمعلومات التي مكنت العلماء من معرفة الكثير عن نتائج ارسال كائن حي للفضاء ، وقد أدّت هذه المعرفة التي تمت عن طريق لايكا الى فتح مجالات واسعة للانسان لريادة الفضاء .. لكم أسدت لايكا للعلم والمعرفة !..

وسيذكر التاريخ دائماً كلما انتصر الانسان في ريادة الفضاء ، الكلبة لايكا اول كائن حي يقتحم الفضاء .

لقد وقفت طويلاً امـام لايكا وقمرها ، حتى شدّني من يدي الفتى الروسي العربي اللسان (يوري) الذي عاش فترة في اسوان وقرى صعيد مصر ، ابان بناء المرحلة الاولى من السد العـــالي ، فاكتسبت لغته العربية التي درسها في



بجانب اسبوتنيك مركبة غاغارين

معهد الدراسات الشرقية في موسكو هذه اللهجة المصرية الصعيدية المحببة ! واكتسبت ايضاً حلاوة النكتة المصرية الساخرة البارعة ، مما جعل مرافقته لنا مصدر غبطة وبهجة .. وما ظنك برفيق روسي عربي مصري !..

قادني يوري الى مركبة الفضاء التي حملت الفتاة الشجاعة (فالنتينا) وكان تمثالها الضخم يتقدم تماثيل رواد الفضاء امام ساحة المعرض . وحق لفالنتينا ان تخلد، فقد بهرت العالم شجاعتها الخارقة، وها هي مركبة الفضاء التي بهرت بها العالم تقبع امامي بكل أجهزتها العلمية الدقيقة تحدث زوار المعرض عن تقدم العلم وشجاعة فالنتينا !..

وهناك في صف طويل عدد كبير من الاقمار والصواريخ التي أُرسلت للفضاء لتقوم بتجارب علمية في البحث والتعرف الى أجواء الفضاء والتأثيرات المختلفة ، وقد أدّت هذه الاقمار دورها بدقة متناهية ، مكنت العلماء بعدها من ارسال الانسان للفضاء .

ووقفت هناك في المعرض شامخة سلسلة أقمار (مونا) التي أُرسلت للقمر في فترات ، محملة بأجهزة دقيقة تجيب على تساؤلات العلماء في محاولاتهم لإنزال كائن حي على سطح القمر ، وقد وقفنا طويلاً عند مونا رقم (٩) وهي التي نزلت على سطح القمر ، ومن هناك اخذت ترسل من خلال الأجهزة العلمية التي زُوِّدت بها ، المعلومات الدقيقة عن كل ما أراد العلماء السوفيات معرفته عن سطح القمر، وقد كان جهاز التلفزيون الذي استعملته مونا (٩) في هذه الرحلة الفريدة موجوداً بداخلها عندما وقفنا نتأملها ، كما كانت تحمل كامل أجهزتها التي حطت بها على سطح القمر .

وفي موضع آخر شهدنا تمثالاً للبطل غاغارين في حجمه الطبيعي يرتدي نفس الملابس التي كان يرتديها عند رحلته للفضاء، وكان يحمل على ظهره المظلة التي هبط بها على سطح الارض من ارتفاع سبعة كيلومترات، وقد هبط بسلام،

كما كان يحمل على ظهره ايضاً بعض الأجهزة للإرسال و (شنطة) بهـا طعام وماء في حال هبوطه في مكان غير مأهول .

لن ينسى العالم شجاعة هذا الفتى ذي السبعة والعشرين عاماً . حدثونا انه وُلد في اليوم التـاسع من شهر آذار (مارس) عام ١٩٣٤ من أب مزارع تعاوني ، وشهد في طفولته الغزو النـازي للاتحاد السوفياتي ، ورأى بعينيه مصرع شقيقه الذي شنقه النازيون على شجرة تفـاح !.. وكان يتذكر دموع والدته ، وكان هو – عند حدوث هذه المأساة – في الرابعة من عمره .

في المدرسة كان يحب دروس الحساب والطبيعة ، وكان يقضي جلّ وقته في العمل .

في عام ١٩٥١ أكمل تعليمه في مدرسة بمدينة لوبرتس قرب موسكو ، ثم التحق بمدرسة صناعية نال منها درجة الشرف سنة ١٩٥٥ .

كانت امنيته ان يصبح طياراً ، وتحققت امنيته هـذه إذ التحق بمدرسة الطيران بمدينة اورنبورج ، وأصبح طياراً منذ عـام ١٩٥٧ ، ونال عضوية الحزب الشيوعي عام ١٩٦٠، وكان من الطيارين الممتازين إذ نال المرتبة الاولى لشهادة الطيران .

كان مولعـاً بالطبيعة وبالألعاب الرياضية والموسيقى ودراسة الآداب وفن الباليه . واختير غاغارين ليكون اول رائـد فضاء في الاتحاد السوفياتي وفي العالم ، وتتبع العـالم كله في إعجاب فائق انباء رحلة غاغارين الفضائية على السفينة (فوستوك) – الشرق – التي بدأت يوم ١٢ نيسان (ابريل) عـام ١٩٦١ ، وصار اسمه على كل لسان ، واستقبل عنـد عودته استقبالاً رسمياً وشعبياً نادراً .

وروع العالم بأسره وهو يسمع انباء نعيه إذ توفي في حادث طائرة مؤسف اثناء تمريناته ، وذلك في عام ١٩٦٧ .

ترك بعده زوجته فالنتينا – وهي غير رائدة الفضاء المعروفة – ولها منه طفلتان : يالينا وقالينا . نعم ، لن ينسى العالم قط هذا الفتى الجسور .

وشهدنا ايضاً الجهاز الضخم الذي تمرن عليه رجال الفضاء قبل ان يبدأوا رحلاتهم الخطيرة ، وفي هذا الجهاز الذي كان يعمل امام الزوار، يواجه رجل الفضاء كل ما يلاقيه على سفينته ، كل الصعاب التي تواجهه في رحلته الفضائية ليتعود على التغلب عليها .

كما يضم المعرض في (فترينة) زجاجية طويلة جميع قطع الملابس التي يرتديها رجال الفضاء في رحلاتهم تلك ، وهي ملابس أعدت وصممت لما يلائم الجو عند انعدام الوزن ، وهي كلها من قطن كيماوي مخصوص لا ينفذ منه الهواء ، حتى الارجل خصصت لها احذية من هذا القطن الكيماوي الذي لا ينفذ منه الهواء .

كان هذا الجناح من المعرض حاشداً بالزوار من الجنسين ، وأكثرهم من السوفيات انفسهم ، ولعلهم يفاخرون ويباهون بما وصلوا اليه من انتصارات رائعة في عالم الفضاء ، جعلت الدول الكبرى تعترف لهم بهذا السبق وتقفوا خطاهم في هذا المجال .

لقد أتاح لنا هذا المعرض ان نشهد تطور اجهزة الفضاء منذ فترة الاختبار العلمي للأجواء عن طريق الاقمار والصواريخ ، حتى آخر قمر أطلق .

ولا شك مطلقاً في ان الزائر لهذا المعرض بعد سنوات قلائل سيجد فيه اول سفينة فضاء سوفياتية هبطت على سطح القمر وهي تحمل احد الشبان السوفيات الذين صار قهر الفضاء مطمعاً وحلماً لكل شاب منهم . وهذا التكريم والتخليد للأبطال الذين قهروا الفضاء والذي تراه في اكثر من مكان جدير بأن يخلق فيهم حوافز الطموح لينال كل منهم هذا الفخر .

وارقبوا معجزات العلم في بلاد السوفيات ، انهم هنا قد اخضعوا كل شيء

للعلم ، ففي هذا المعرض – الذي لم نستطع ان نطوف بكل جوانبه مكتفين بالجانب الذي يمثل منجزات السوفيات في مجال الفضاء – في هذا المعرض يتجلى مدى إخضاع كل الثروات البشرية والطبيعية والحيوانية للعلم ليبحث وينقب ويكتشف سعياً وراء رفع مستوى الانتاج ، وليضيفوا جديداً مبتكراً يضاعف من إثراء حياة الانسان .

ومرة اخرى ، ارقبوا منجزات العلم في بلاد السوفيات .



٦

خواطر في الطريق الى لينينغراد

قمنا بجولة واسعة في مدينة موسكو قبل أن نغادرها الى لينينغراد،العاصمة الاولى لروسيا طوال عهد القياصرة ، وراعتني في موسكو هــذه العمارات الحديثة الشاهقة ، وكلهـا بنيت في العهد الاخير وهي تختلف كثيراً عن مباني موسكو القديمة، وقد اخبرنا مرافقونا ان اكثر هذه العمارات خصصت للسكن من قبـل الدولة بأجر زهيد ، وعجبت عندما علمت ان الدولة تهيء فرص السكن لثلاثمائة اسرة يومياً في مدينة موسكو وحدها ! وقــد زال عجبي عندما أخبرت ان هذه المساكن تبنيها المصانع ، وليس بأيدي العمال كما نعرف هنا ، فالمصنع الخاص بهـا ، يخرج جدار الغرفة كاملاً ، حتى اذا اكتملت الجدران ، ضمت الى بعضها ، وجـاء السقف جاهزاً من المصنع ايضاً وركب عليها ، كل هذا في سويعات !

وأضاف مرافقي في لينينغراد الى هــذه المعلومات عن المصانع التي تخرج المساكن في سويعات، ان مائة شقة يتم صنعها في المصنع في مدى ثلاثة اسابيع فقط ! وتكون صالحة للسكن في صورة نهائية ، بعد أن تبني منها عمـارة شاهقة في فترة أقصاها ثلاثة أشهر وقد تنقص !

وتحسرت على عمليات البناء عندنا بطريقتها البدائية والعمال يحملون « المونة

والطوب » على اكتافهم هابطين وصاعدين ، والبناؤن قد اعتلوا الجدار يبنونه « مدماكاً بعد مدماك » ، والجهد والزمن الذي يبذلونه حتى يتم بناء المنزل الواحد في عدة أشهر وربما لأكثر من سنة حسب الاستطاعة !

لقد أزال العلم الحديث هذا العناء ، وتخرج الآن المنازل جداراً جداراً من المصنع جاهزة ليتم بناء مائة شقة - والشقة تتكوّن من عدة غرف وملحقات في مدى ثلاثة اسابيع ، ولهذا أمكن للدولة ان تهيء السكن المناسب لثلاثمائة اسرة يومياً في موسكو وحدها وتفعل مـا يقرب من هذا كل الجمهوريات السوفياتية لتوفير السكن لمن هم في حاجة اليه بأجر شهري يسير .

ولمن يستطيع ، الحق في الحصول على منزل لاسرته على حسابه الخاص ، يشتريه من الدولة ويرفع الثمن على اقساط اذا شاء ويكون ملكاً خاصاً له ، ينتفع به كما ينتفع كل صاحب ملك بملكه في سائر البلاد، مثلما يحق له امتلاك سيارة خاصة اذا كان يستطيع شراءها ، ولا يستوردون سيارات من خارج الاتحاد السوفياتي ، فكل سياراتهم هي من صنعهم ، ومنها ما يصدر للخارج، ولدينا في السودان نماذج منها معروفة .

ووقفنا ملياً عند طوافنا بموسكو على جامعتها الحديثة الضخمة الفخمة البنيان ، والتي ضاعف من روعتها ان عدداً ضخماً من شباب موسكو تطوع للبناء حتى أنجزوها رائعة شامخة ، وقد كافأت الدولة اولئك الشبان بأن أتاحت لهم فرص التعليم كل وفق مستواه ورعتهم رعاية خاصة .

وجامعة موسكو تضم اليوم خمسة وعشرين الف طالب وطالبة ، وأثلج صدري ان ثمانمائة طالب سوداني يدرسون اليوم في جامعات الاتحاد السوفياتي وأن جامعة موسكو الشامخة تضم عدداً كبيراً منهم ، والبقية تضمهم جامعتا لينينغراد، وكييف عاصمة جمهورية اوكرانيا ، كما علمت ان الف طالب سوداني آخرون يدرسون اليوم في دول المعسكر الاشتراكي الشرقية، وقد لقيت عدداً منهم وتقصيت منهم احوالهم فبدا لي انهم سعداء في هذا المجتمع الجديد ، فهم

يعاملون باحترام فائق ، وليس هناك عقدة (ألوان) كما في بعض البلاد الاخرى ويمنحون اعانات مادية سخية يستطيع اكثرهم بعد الانفاق على نفسه ان يوفر منها مبلغاً شهرياً محترماً بالنسبة للطالب .

وفي الاتحـاد السوفياتي نحو الخمسة والثلاثين جامعة ، او تزيد ، ففي كل عاصمة جمهورية قومية جامعة .

وجامعة موسكو تقع على ضفاف نهر موسكو مباشرة ممـا يزيد من جمال مظهرها ، مثلما تقع جامعة الخرطوم على ضفاف نهر النيل الخالد .

اخترنا لرحلتنا الى لينينغراد القطار بدلاً من الطائرة ، لأن ذلك يمكننا من التعرف الى معـــالم الارض والبلاد ، وبالرغم من ان القطار الذي اقلنا غادر موسكو في منتصف ليـل الاحد ووصل بنا لينينغراد في الساعة الثامنة من صباح الاثنين ، إلا أننا تمكنا من مشاهدة الكثير من معـالم الطريق ، وأكثر ما لفت نظري بصورة دائمة الخضرة التي تكسو وجه الارض ، فلم تقابلنا قط بقعة جرداء ، كما ان منظر الغابات ذات الاشجار السامقة العالية لم يغب عنـا أبداً ، أما عناية السكان ، والبلديات بالحدائق التي تضم ألوانـاً بهجة من الزهر والورد ، تحدث عنها ولا حرج ، وما من محطة للقطار وقفنا بها وكانت خالية من حدائق الزهر البهيج ، والاشجار الباسقة .

وكنت اظن ان القطارات في الاتحاد السوفياتي من درجة واحدة ، طبقاً لمفهوم المساواة الذي يسيطر على تفكيري، وربما كان الكثيرون مثلي، ولكني وجدته من درجتين احداهما أقـــل مستوى ، ولكني اشهد ان الفارق بينهما قليل ، فالدرجة الاولى التي كنا بها تضم سريرين واسعين احدهما فوق الآخر كما هو الحال عندنا في عربات النوم ، ولا يسمح لغـــير شخصين في الغرفة الواحدة وهي نظيفة وجميلة وبها مـــاء بارد وساخن ، وكل وسائل الراحة للمسافر. أما الدرجة الثانية ففيها مقاعد وثيرة، مقعد لكل راكب، ومن نافلة القول ان اتحدث عن النظافة ومستوى الخدمة الراقي وبها ايضاً سرائر للنوم .

قد يكون جديداً على القارىء ، كما كان جديداً علينا ، ان الحمالين الذين يتناولون منك حقائبك من خارج المحطة حتى داخل القطار لا يتقاضون منك اجراً ، فإنهم يأخذون اجوراً ثابتة على اداء هـذا العمل ، وهناك تحذير من اعطاء أي منهم (بقشيش) من قبل الركاب او اجراً على نقلهم للحقائب .

وبالمناسبة ، فإنـك تجد استحالة في ان تجد (عتالاً) او (حمالاً) يحمل لـــك اشياءك من داخل متجر مثلاً الى السيارة ، إذ لا يوجد شخص واحد يؤدي مثل هذا العمل ، وعليك ان تفعل ذلك بنفسك ، قلّت او كثرت حاجياتك ، ولا تفكر في البحث عن (حمال) !

وفي الفنادق يوجد عمال مخصصون لحمـــل الحقائب من داخل السيارات للقادمين للفندق الى داخـــل الحجرة التي تخصص لهم ، وبالمثل عند سفره ، ينزلون بها الى السيارة التي تقله ، وفي كل هذا ، فهم كعمال السكة الحديد لا يأخذون منك أجراً على هذا العمل، وإنما ينالون أجراً متفقاً عليه بين نقاباتهم وبين الجمعيات التي تدير هذه الفنادق .

والذين تتبعوا تطبيق التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي يعرفون انه ليس هناك من يملك تجارة او زراعة او مصنعاً او اي نوع من الاعمال لحسابه الخاص ، فكل شيء من هذا يدار عن طريقين : اما عن طريق الدولة ، او عن طريق الجمعيات التعاونية ، حتى بائع الصحف وسائق التاكسي وبائع المياه المعدنية ، والسجاير ، وكل من يبيع ويعمل ويصنع ويزرع ، انمـا هو عضو في جمعية معينـة تشرف على هذا النوع من العمل ، والذي يكلف ببيع سلعة او سلع مـا ، يأخذ اجراً شهرياً على اداء عمله ، ويقدر الاجر وفق ادائه ، ويختلف كثرة وقلة ، ولكن الحد الادنى لكل عامل قد حددته الدولة بستين روبلاً شهرياً ، والروبل يعادل نحو الاربعين قرشاً في السودان، وهذا هو الحد الادنى للأجور في كل انحاء الاتحاد السوفياتي ، وقد تجد في مصنع واحد مَن يُمنح اجراً لا يتجاوز هذا القدر او يتجاوزه بقليل بينما تجد بجانبه عاملاً آخر

اكثر خبرة فنية ويؤدي عملا اكثر تعقيداً ، يبلغ أجره مائتي روبل او اكثر، فليس هناك مساواة في الاجور وإنما هناك تحديد للحد الادنى منها على النحو الذي اوضحت .

ولا يغيب عنا ان هذا الاجر المحدد ليس هو كل الدخل ، فهناك عائد الارباح الذي تحققه الجمعية او المصنع او المزرعة ، إذ يوزع جانب منه على الاعضاء .

وهناك ايضاً حوافز زيادة الانتاج في اية مادة او سلعة ، او حتى زيادة مستوى البيع في متجر ما ، صغر او كبر ، كلها تُدخل زيادة على دخول العاملين .

وعندما اتحدث عن زيارتنا لإحدى كبريات الجمعيات التعاونية الزراعية سأتناول هذا الموضوع بالتفصيل .

ومن الواضح انه مع وجود تفاوت في الاجور،والدخول للجمعيات المختلفة زراعية او تجارية او صناعية فليس هناك اغنياء وفقراء على النحو المعروف لدينا ، فقد تكفلت الدولة بكل شيء يقلق الانسان ويخيفه على مستقبله ومستقبل اسرته .

فالأطفال منذ ان يكونوا أجنة في بطون امهاتهم، تحت رعاية الدولة طبياً واجتماعياً ، حتى يولدوا ، وتعليمهم في مختلف المراحل وفق استعداد كل منهم ذهنياً ، يعتبر مسؤولية الدولة ، وهي تؤديه احسن أداء . ونسبة التعليم الآن تبلغ ١٠٠ ٪ ، والمريض يعالج مجاناً عن طريق الاخصائيين حتى يشفى ، والكشف الطبي على كل فرد مفروض على فترات زمنية للاطمئنان على صحته، وكل ما يتطلبه العلاج مجاناً حتى منح النظارات الطبية وتركيب طقوم الاسنان والأطراف الصناعية .. الخ .

وهناك دور للعجزة الذين يقعدهم الكبر عن العمل ، ويخصص لكل منهم مرتب شهري مجز ، سواء جاء لهذه الدور ام بقي مع اسرته ، ولا عطالة اطلاقاً في الاتحاد السوفياتي، فالعمل موفور لكل رجل وامرأة وفتى وفتاة ،

كل حسب تعليمه وتدريبه الذي ناله من الدولة مجاناً ، وللأسرة منزل خاص، تملكه ان استطاعت او تؤجره لها الدولة بمبلغ شهري زهيد.. مستقبل الاسرة مؤمن ، فلا خوف من عجز او مرض او شيخوخة او ان يفقد عائل الاسرة الرزق ، ولا عطالة تهدد كيان الاسرة في ابنائها ، والتعليم حتى آخر مراحله وفق الاستعداد الذهني للطفل مكفول مجانـاً ، الاكاديمي والصناعي والفني وسواها ، وعلى احسن المستويات ، وأكثر من ذلك فان الدولة تقـدم اعانات ثابتة شهرياً للقسم الاكبر من طلاب التعليم العالي .

لا اقول ان المجتمع السوفياتي بلغ المثالية بعد تطبيقه للنظام الاشتراكي ، فما زال هناك ما يشكو منه حتى المسئولون انفسهم ، ولكنهم بدون شك قد قطعوا شوطاً بعيداً في تحرير الانسان من الخوف والقلق على مستقبله وأفراد أسرته ، هذا الخوف الذي نحس به كلنا وفي مجتمعنا الرأسمالي خاصة ويجعلنا نتكالب بالرغم منـا لاكتناز اكبر قدر من المال ، وقـد لا يعف بعضنا عن سلوك الطريق غير المشروعة ليحصل على هذا المال ، كل هذا ليؤمن مستقبل اسرته من الضياع المادي في مجتمع لا يرحم الفقير .

وتكملة لهذه الصورة الاشتراكية التي لم أبرزها تماماً كما يجب ، اقول ان اسعار الحاجيات هناك موحدة تمامـاً في كل الاسواق ، لأنه كما ذكرت فان الانتاج اما ان تسيطر عليه الدولة او الجمعيات التعاونية ، ولن تجد قط سلعة تعرض في مكان بجنيه واحد مثلاً وتجدها في مكان آخر بأقل او اكثر من هذا الجنيه ، ولهذا فليس هناك مفاصلة وإلحاح في تقدير قيمـة أية سلعة ، فالثمن واحد ولا يختلف في متجر عنه في متجر آخر في بلد واحد ، وهذه واحدة من عوامل الطمأنينة النفسية للناس في ذلك المجتمع .

ويقيناً اننا من اكثر الناس احساساً بمدى أثر هذه الطمأنينة ، فنحن نعاني من الغلاء المصنوع المتصاعد بلا رقيب او حسيب .

لقد بلغت بكم لينننغراد ، ولم نتحدث عنها بعد .

٧

ليننغراد ... مائة جزيرة وجزيرة

زيارة لمسجد المدينة :

في صباح يوم الاثنين ٢٠ ايار (مايو) ١٩٦٨ وقف بنا القطار عند محطة ليننغراد ، وقد ذكرت في حديثي الاخير اننا اخترنا ان نقطع المسافة بين موسكو وليننغراد بالقطار ، لنتمكن من مشاهدة معالم الحياة في هذا القطاع من الاتحاد السوفياتي .. ورغم ان الرحلة كانت ليلاً إلا اننا استطعنا مشاهدة الكثير من المعالم في ذلك الطريق المليء بكل صنوف الحياة الطبيعية الجميلة .

واستقبلنا على رصيف المحطة أعضاء جمعية الصداقة السوفياتية السودانية ، وبينهم من يحسن العربية الفصحى .. وكان يرافقنا من موسكو مندوبان من هذه الجمعية ، احدهما يجيد العربية الفصحى والعامية - مع اللهجة المصرية - وقد تحدثت عنه من قبل إذ قضى فترة طويلة في منطقة اسوان بمصر عند بدء العمل في السد العالي .

وطافوا بنا - بعد ان أنزلنا حوائجنا في الفندق الضخم الذي اختير لاستضافتنا - طافوا بنا في شوارع ليننغراد لنأخذ فكرة عامة عنها قبل ان نبدأ زيارتنا لمعالمها الهامة .

ولينينغراد مدينة ذات طابع يختلف كثيراً عن موسكو ، ويبدو لي انها أقرب للمظهر الاوروبي،حتىان سكانها يخيل لي انهم أنصع بياضاً في ألوانهم عن سكان موسكو ، وهي تقع في أقصى الشمال على بحر البلطيق .

الشارع الرئيسي فيها يمتد الى مسافة اربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر، تقوم على جانبيه مبانٍ فخمة عالية مؤلفة من عدة طوابق ، ولست في حاجة للتحدث عن فخامة البناء ونظافة المدينة ، فذلك قد صار مظهراً عادياً .. وتكثر الحدائق العامة في لينينغراد بطريقة ملفتة للنظر ، ولا عجب فهي تقع على جزر يبلغ عددها مائة جزيرة وجزيرة ، يربطها مع بعضها جسر .. ولا تحس اطلاقاً وأنت تجوبها انك تسير في مدينة تقوم على هذا العدد الضخم من الجزر ، بل انك تحس بأنها مدينة متصلة لولا هذه الجسور التي تخترقها في اكثر الطرق ، وترى الانهار من تحتها متدفقة ممتدة لتزيد من روعة المدينة وبهجتها في أعين الزائرين .

ويشق المدينة نهر يعتبر من اكبر أنهارها واسمه نهر نيفا ، تذكرت به النيل فهو يشبهه عمقاً واتساعاً ويقصر عنه مدى ، - وأي نهر لا يذكرني بالنيل - وكثيراً ما شاهدنا على شطي نيفا أعداداً من صائدي السمك بسناراتهم مثلما نشاهد أحياناً على شواطىء النيل ، ويبلغ طول نهر نيفا اربعة وسبعين كيلو متراً ، وينبع من بحيرة تقع في شرق لينينغراد ، ويصب في بحر البلطيق .

سأترك اليوم جانباً الحديث عن المدينة ومعالمها التي زرناها لأتحدث عن زيارتي المفاجئة لمسجد لينينغراد في يوم الجمعة .

عندما بلغنا موسكو ، اقترح علينا أن نزور مسجد موسكو من بين المعالم التي نزورها ، فاعتذرنا عن زيارته ، لأن الزيارات المرتبة في برنامج خاص ، قد تخرج مصنوعة لا تعطيك فكرة صادقة تعتمد عليها ، وقد كان في ذهني أفكار شتى عن الدين في الاتحاد السوفياتي ، لهذا قررت أن أزور



مسجد لينِنغراد

أي مسجد زيارة لا تكون مرتبة في البرنامج ، وضمرت أن يكون مسجد لينِنغراد ، وقد سمعت عنه في موسكو ، المسجد الذي أحفيه بهذه الزيارة .

وفي يوم الجمعة ، فاجأت مرافقي في نحو الساعة الواحدة بأني أريـــد الذهاب المسجد لاداء صلاة الجمعـة ، إن كانت هناك صلاة ! وكنت أشك كثيراً في أن أجـــد مسلمين يؤدون صلاة الجمعة ، فإن جو المدينة ومظهر

الناس يوحي بهذا الظن الذي تملكني ، ولم يسع مرافقي الا أن يحققوا رغبتي ويتجهوا بنـا الى مسجد لينغراد ، أنا والزميلان بابكر محمـد علي وعمر الفاروق ، وبلغنا المسجد الذي يقع في أجمل منطقة بالمدينة ، ووقفت أمامه أتأمله من الخارج قبل أن أدخله ، وأشهد أنه أدخل السرور على نفسي بمظهره الفخم الرائع حقاً ، وقد توسطته قبـة عالية ، وقامت على طرفيه مئذنتان عاليتان ، وقد كتبت على أعلى واجهاته بحروف عربية كبيرة وبخط جميـل للغاية «بسم الله الرحمن الرحيم – إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً».

ولقد تملكتني نشوة روحية فائقة وأنا أجد في قلب لينغراد مسجـداً اسلامياً رائعاً على واجهتـه بالخط العربي الجميل آيات من القرآن الكريم ، ودخلت المسجد ، والقيت عليه نظرات فاحصة التهمت كل جوانبه ، وأرضه المفروشة بالسجاجيد الفاخرة ، وسقفه المزين بالثريات الكهربائية الضخمة ، وأعمدتـه البيضاء السامقة ، وأشهد أنه لا يقل روعة وفخامة عن أكبر وأجمل المساجد الإسلامية التي شهدتها في كبريات العواصم الإسلامية ، وانه ليفوق الكثير منها ، وقد علمت فيما بعد من إمام المسجد أنـه يتسع لنحو ثلاثة عشر الف من المصلين !.. ولكن .. أين هم ؟.

والقيت نظرة على المصلين الذين كانوا جلوساً في صف بقرب المنبر الفخم ، وأحصيت عددهم فكانوا أربعة وعشرين شخصاً ، كلهم من الاتحاد السوفياتي ، يرتدون الزي الافرنجي ، وكانوا قد انتهوا من أداء صلاة الجمعة . فقلت عليّ أن أحيي المسجد وأصلي الظهر فأنا مسافر ولست مقيما .

واتجه نحونا رجل في حدود الأربعين أو يزيد قليلا ، علمت من المترجم الذي يرافقنا أنه مؤذن المسجد ، وحيانا في حرارة بالغة ، وقد توهمت أنه يعرف العربية ، ولكنه كان يجهلها تماماً ، مع أنه يؤذن بالعربية ! وقلت له عن طريق المترجم : أريد أن أتوضأ . . . فابتسم وقادني خارج المسجد الى بناء لطيف يتبع المسجد ، خصص فيه مكان للوضوء (حنفيات) الماء على

الجدار ، تحتها جدول من الاسمنت يحمل ماء الوضوء الى مكان مـا ، ويجانب الحنفيات أباريق من الزنك كهذه الأباريق التي نشهدها في مساجدنا تماماً إلا انها تبدو اكبر حجماً بعض الشيء ، وجلست للوضوء على (مصطبة) طويلة من الاسمنت ووقف المؤذن بجانبي ينتظرني .. ومرة اخرى سألته إن كان يعرف قليلاً من العربية ، فهز رأسه وأبدى أسفه بصورة واضحة من تقاطيع وجهه المعبرة ، ولكن سرعان مـا أثار دهشتي عندما اخذ يتلو على مسامعي سوراً من القرآن الكريم من « جزء عمّ » ، كان ينطقها نطقاً صحيحاً لا خلل فيه ولا عوج ، لولا لكنة في لسانه تصحب كل لسان غير عربي مهما مُرّن على نطق العربية ، وظلّ يقرأ عليّ سوراً من القرآن حتى فرغت من الوضوء ، ثم صحبني مرة اخرى الى صحن المسجد لأؤدي الصلاة ، ومـا كدت أفرغ حتى جاء نحوي امام المسجد ، رجل روسي وقور تجاوز الخمسين ، وحيّانا باللغـة العربية الفصحى في حرارة بالغة ، والتفّ حولنا عدد من المصلين يحيّونا بلغتهم ويعبرون عن ابتهاجهم البـالغ بزيارة مسلم عربي افريقي لمسجدهم ... وكنت أشعر بوضوح بفرحتهم وغبطتهم بهذا اللقاء ، وقـد علمت من بعض الأصدقاء الذين زاروا المناطق الاسلامية في الاتحاد السوفياتي انهم كانوا يجدون دائماً من المسلمين السوفيات ترحاباً بالغاً ، الى حد لا يتخيلونه وخصوصاً عندما يلتقون بهم في المساجد ، فيبالغون في الترحاب وفي التكريم ، ولعلهم في هـذا اللقاء الاسلامي الخالص يشعرون بأن قطعة حية من وجدانهم الروحي تتمثل امامهم من البلاد الاسلامية ، منبع الرسالة التي آمنوا بها وحفظوا عهدها على البعد .

سألت إمام المسجد عن تاريخ بنـائه ، فقال : انه بُني في عام ١٩١٠ ، قام ببنائه احد أمراء بخارى المسلمين ، وقد استأذن القيصر في بنـائه ليؤدي فيه المسلمون في هذه المدينة صلواتهم ، وكان اكثرهم من التتر.. وكانت الدولة في عهد القياصرة ينصّ دستورها على ان دينها الرسمي هو المسيحية الارثوذكسية.

وبعد زوال الحكم القيصري وقيام حكومة الثورة الاشتراكية ، لم يعـــد



المسلمون في لينينغراد يؤدون الصلاة في المسجد

للدين مكان رسمي في الدولة ، بل تُرك امره للافراد ، فلكل فرد ان يعتنق من الأديان ما يشاء،وأن يمارس شعائره الدينية كما يريد بغير تدخـّل من الدولة.

قال لي إمام مسجد ليننغراد : ان المسلمين في هـذه المدينة كوّنوا جمعية عامة لرعاية المسجد وجمع التبرعات له وإدارته ، وان عدد افراد الجمعيـة الاسلامية لمسجد ليننغراد يبلغ ثلاثين الف عضو ، اختـير عشرة منهم فقط لإدارة المجلس وعشرون شخصاً كمجلس أعلى، هو الذي يختار العشرة للادارة، يشرفون على أثاثات المسجد والترميم والشؤون المالية من مصروفات وإيرادات.

وللمسجد اربعـة موظفين ، إمام ومساعده ، ومؤذن ومساعده ، تدفع اجورهم الجمعيـة التي تنظم وتجمع الاموال للمسجد ، عن طريق التبرعات من الاعضاء .

وحدثني الإمام ان كثيراً من كبار الزوار المسلمين الذي يجيئون لليننغراد ، يؤدّون الصلاة في المسجد ، ويتبرعون له ، وهم من مختلف البلاد الاسلامية ، عربية وغير عربية . وحدثني في اعتزاز وبهجة ، عن زيارة الرئيس جمـال عبد الناصر للمسجد وإدائه الصلاة فيه ، وتبرعه السخي للمسجد .

وقدم لي دفتراً ضخماً سميك الغلاف ، كتبت عليه بلغات عديدة عبارات التحية والتمجيد لمسلمي ليننغراد الذين يحتفظون بهذه القطعة الاسلامية الفخمة في قلب المدينة ، وقد خطّ الكلمات كبار الزوار للمسجد ، وقد قرأت تحية عبد الناصر بخط يده .

وطلب إليّ الإمـام ان اكتب شيئاً ، ومع اني لست نداً لهؤلاء الرجال الذين سجلوا زياراتهم للمسجد ولكني – تكريماً لاسم السودان – رأيت ان أخطّ كلمة احيّي فيها مسلمي ليننغراد باسم مسلمي السودان مسجلاً زيارتي كمسلم سوداني لمسجدهم العظيم ، ولقد فعلت .

ثم اخذت أطوف على أرجاء المسجد الفخم، ومعي الإمام ونخبة من المصلين

الذين – رغم انهم لا يعرفون العربية – أصرّوا على البقاء بجانبي ومرافقتي خطوة خطوة إحساساً منهم بهذه الرابطة الروحية العميقة التي تربط بيننا كمسلمين .

وفي أقصى المسجد شهدت رجلا وقوراً ، تجاوز الخمسين، اتكأ بظهره على عمود من أعمدة المسجد ، مستغرقاً في تلاوة كتاب مفتوح بين يديه ، فدنوت منه ، وجلست بجانبه ، بعد أن حييته بالعربية ، فأشار بالتحية ايماءً ولم ينطق ، وشد ما أدهشني وأطربني أن رأيته يتلو القرآن كما انزل بالعربية وإن لازمته تلك اللكنة الأعجمية التي لا تفسد صحة التلاوة . . . كان الرجل – وهو من روسيا – يقرأ القرآن بالعربية من المصحف ، في استغراق روحي واضح ، مثلما نرى بعض المؤمنين في المساجد الاسلامية .

وازداد عجبي عندما اكتشفت ان الرجل لا يستطيع أن يتحدث معي بالعربية ، وأنه قد حفظ القرآن بالعربية وعرف معانيه بلغته ، ولعل الكثيرين قد لحظوا هذه الظاهرة عند الشعوب المسلمة غير العربية ، يحفظون القرآن بالعربية ويدرسون معانيه بلغاتهم الخاصة بهم .

سألت الامام ، من أين لهم دراسة القرآن وحفظه ؟ فأجاب بأن هناك في كثير من الجمهوريات الاسلامية ، مدارس لعلوم الدين والقرآن يتخرج فيها علماء الدين وأئمة المساجد .

وذكر لي على سبيل المثال مدرسة عالية المستوى في مدينة بخارى في جمهورية ازبكستان ، تدرس علوم الاسلام والقرآن ، وأن مدة الدراسة فيها تسع سنوات كاملات ..

نسيت ان أقول أن لمسجد لينتغراد طابقاً علوياً خصص لصلاة النساء !

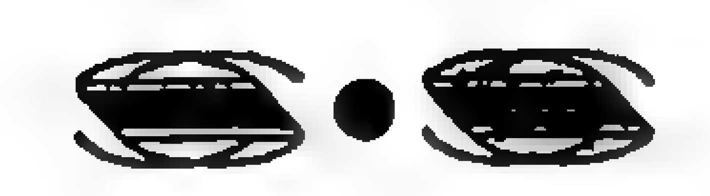
لا أستطيع مطلقاً أن أصف ذلك الشعور الروحي الذي غمرني وأنا أتوسط مجموعة من المسلمين السوفيات في مسجد لينتغراد، وهم يكادوا أن يلتهمونني

وزميلي لفرط سرورهم بوجودنا بينهم ، نمثل لهم إخواناً في العقيدة جاءوا لهم من أقصى البلاد فلم يحسوا معهم بغربة أو فرقة ، بل تمازجاً روحياً عميق الأثر.

وخرجوا معنا من داخل المسجد ، وقد تجمهر الكثيرون حولنا ، وربما دفعهم الى ذلك الزي السوداني الذي حرصت على ارتدائـــه ، – الجلابية وملحقاتها – وهو زي غريب عليهم حقاً ، وظل المصلون في مسجد لينينغراد يحيطون بنا – أنا وزميلاي – حتى ابتعدت بنـا السيارة عنهم ، وما زال أثر لقيامهم عميقاً في أغوار النفس .

وأخذت اسأل عن إحصاء يقدر لي عدد المسلمين في الاتحاد السوفياتي ، واذا بي أفاجأ بأن عددهم يبلغ خمسة وثلاثين مليوناً من البشر ، أكثرهم في جمهوريات آسيا الوسطى من الاتحاد السوفياتي .

إن لنا قوة اسلامية ضخمة في الاتحاد السوفياتي من الخير أن نلم بأحوالها ، وأن نلتقي بها ما وسعنا الجهد .



٨

مقبرة نصف المليون شهيد !

قلت أن مدينة ليننغراد بنيت على مائة جزيرة وجزيرة يربطها ستمائـــة جسر ولولا أن يحدثك أبناؤها بهذا ، لما شعرت بأنها تقوم على هـذا العدد الكبير من الجزر فهي تبدو لك ككل مدينـــة كبيرة مترابطة متماسكة ، تخترقها شوارع طويلة منتظمة تصل ما بينها في سهولة ويسر ، يشقها نهر نيفا الذي تحدثت عنه من قبل والذي يبلغ طوله ٧٤ كيلومتراً .

السيارة تنهب بنا طرق ليننغراد ذات المناظر الساحرة ، وعيوننا مأخوذة بهذا الجمال ، ونحن نتجه الى مقبرة نصف المليون صرعى معركة المدينة ضد الغزو النازي في الحرب الأخيرة ، وما من شك في أن القراء الذين عايشوا تلك الفترة العصيبة عندما كانت جيوش هتلر وموسوليني تغزو اكثر بلاد العالم ، والحلفاء الديمقراطيون ينهزمون أمامها في هلع وذعر ، الذين عايشوا تلك الفترة ما زالوا يذكرون أنباء البطولات النادرة للشعب السوفياتي وهو يقاوم الغزو النازي بادىء بدء ، وما زالت في آذاننا ومشاعرنا أنباء القتال النادر المثال في مدن سوفياتية لم يعد أحد في العالم لم يسمع اسمها ، مثـــل ستالينغراد وليننغراد . وقـد كان دفاع الروس في ستالينغراد نادر المثال ، فقد دافعوا عن مدينتهم وقاتلوا الجيوش النازية في داخل المدينة ، وفي كل منزل ،

وفي كل غرفة وباب ونافذة، قاتلوا عنها شبراً شبراً والعالم كله يسمع في ذهول أنباء تلك الملاحم .

ولهذا لم يكن غريباً ان يكون من اول الاماكن التي نذهب لزيارتها مقبرة لينغراد التي كان لها ما كان لأختها ستالينغراد من مواقف البطولة النادرة في الدفاع عن الارض . وقـــد سقط في معركة الشرف اكثر من مليون من ابنائها دفن نصفهم في هذه المقبرة التي عُرفت بمقبرة نصف المليون شهيد .

لقد حوصرت مدينة لينجراد من قبل النازيين مدة تسعمائة يوم ! لم يهدأ فيها القتال يوماً واحداً ! وقيل ان نحو ستمائة الف شخص في هـــذه المدينة ماتوا بسبب الجوع ! فقد حاصرتها الجيوش النازية من جهة الشرق على مسافة عشرين كيلومتراً منها ، ومن الجنوب على مسافة ١٥ كيلومتراً ، وأوشكت أن تطبق عليها نهائياً للتفوق النازي العسكري ، وقيل أن هتـلر قد حدد شهر نوفمبر عام ١٩٤١ موعداً للاحتفال باستعراض قواته المنتصرة داخـل المدينة ، مثلما حدد ذلك لدخول موسكو ! ولا عجب فقـــد كانت قوات النازية تتقدم من نصر الى نصر وقد وضح الاعياء على جيوش السوفيات وهم يقاومون في عقر ديارهم ويبذلون المستحيل ليبدأوا الهجوم ! وقد اشتدت المجاعة في لينغراد ابان هذا الحصار العنيف ونفذ الطعام ، ومات الألوف جوعاً .. وكان القليل من الطعام الذي يصل الى المدينـــة يجيء عن طريق الطائرات التي كانت تخترق الحصار بصعوبة ، لتلقي من الجو اكياس الطعام .

وبلغنا المقبرة ، بل قل بلغنا الحديقـــة الفيحاء الواسعة الأرجاء والتي غطيت كل أرضها بالنبت الأخضر ، تتخللها ممرات ضيقة لا تتسع لأكثر من شخصين من حجر يشبه المرمر ، وخلال هذه المساحات المخضرة ، تطالعك الوان من الزهر والورد نسقتها يـد فنان صناع ... وفي هـذا المكان الذي لا تحس فيه بوحشة الموت ، بل بجمال الحياة وروعتها وسحرها ، وتحت هذا الثرى المخضر المورق ، يرقد جثمان نصف مليون من ضحايا الحرب في هـــذه المدينة العظيمة !

وقد اخذت أجيل الطرف من بعيد وأنا في اول المقبرة، وقبل ان اجوس خلالها، فشهدت مئات الزوار يسيرون في صمت ووقار ولعل بينهم، بل يقيناً، من جاء يحيي ذكرى اب او ولد او اخ او اخت، او حبيب طواه الردى هنا.

ولفت نظري عـدد كبير من صغار الطلبة والطالبات في رفقة مدرّساتهم يسيرون على ممرات المقبرة ، وما من شك في ان مربياتهن أردن ان يغرسن في نفوس ابناء الجيل القادم روح البطولة والفداء ، وتمجيد الابطال الذين ضحوا بأرواحهم ليحرروا لهم وطنهم من الغزو الاستعماري الرهيب . انهـا دروس عملية في الوطنية ، ويبدو ان كل مدارس لينينغراد يزور طلبتها هذه المدرسة ضمن دروس التربية الوطنية .

عند اول المقبرة تتصاعد ألسنة النيران عالية من موضع خاص ، قالوا انها الشعلة الخـالدة التي لا تنطفىء على مر الايام وتعاقب الفصول ، شعلة الحرية الوضاءة تنبعث من امجـاد هؤلاء الابطـال الراقدين تحت الثرى ، فهم الذين اشعلوها بدمائهم ، وستظل ابداً موقدة حيث رقدوا .

ووقفنا ملياً أمام الشعلة ذات المدلول السامي العميق، وعند المدخل ايضاً، ميكروفون تنبعث منه الاناشيد الوطنية ، وأناشيد تخلد امجاد لينينغراد ، كما تنبعث منه مختلف الوان الموسيقى الهادئة الحزينة التي تناسب جلال المكان ، ويتخلل ذلك احاديث قصيرة مسجلة تذيع بطولات الشعب السوفيـاتي الذي دافع بكبرياء وشموخ وشجاعة خارقة عن الوطن . وقلت في نفسي : لِمَ لا يشبّ الفتية هنا على حب الوطن والاستعداد للتضحية والفداء والرغبة الصادقة في العمل من اجل رفعته ، وهم اينما اتجهوا يجدون تخليداً وتمجيداً لذكرى كل من ضحى وعمل عملا جليلا من اجل الوطن ؟ .

وبدأنا السير نحو المقبرة ، واعترانا من الخشوع والإجلال مـا اعترى هذه الجموع التي شهدناها من حولنا تسير على ممرات المقبرة ، وقد حسر الرجال عن رؤوسهم ، وأنظارهم عالقة بكل قطعة من هذه الارض التي يرقد تحتها نصف

مليون من آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم ، ذهبوا ضحية حرب غادرة ، اوقدها هتلر المجنون في سبيل التسلط على العالم .

وكنت اسائل نفسي وأنا انظر هنا وهناك فأرى على الوجوه سمات المكلوم الحزين ، وأتمثل عظم التضحيات التي بذلها الروس لمواجهة الغزو النازي : ترى ماذا يكون مصير العالم كله لو انتصرت النازية هنا ؟ ولو لم يقف هذا الشعب الباسل في قوة وصلابة باذلاً ما بذل من دماء وأموال وعتاد ، حتى استطاع ان يقهر الغزو النازي ؟

وشعرت عندها اننا ، في سائر انحاء العالم ، مدانون حقاً لهذا الشعب العجيب الذي كسر شوكة النازية وحطم آمال هتلر في امتلاك العالم ، ذلك الرجل المغرور الذي كان يحلم بسيادة شعب الله المختار ، الشعب الالماني النقي السلالة – كما كان يقول عنه – على شعوب العالم كلها .

وتحسرت ، فقد كنا في السودان ابان تلك الحرب وبسبب ما كنا نعاني من قسوة الاستعمار الانكليزي وكبته وقهره ، وكراهيتنا ومقتنا له ، كنا نشايع النازية ، ونبتهج بكل نصر تحرزه على الحلفاء . وما زلت اذكر كيف ابتهج الكثيرون منا ، وليس في السودان وحده فحسب ، بل في العديد من الاقطار العربية التي كانت تعاني من وطأة الاستعمار الانكليزي والفرنسي ، كيف ابتهجنا يوم اعلن عن سقوط باريس تحت اقدام الجيش النازي .

ومثل هذا الشعور تملكنا عند انتصار الالمان في معركة دنكرك الشهيرة ، عندما انهزمت القوات الانجليزية في القارة ، وتراجعت مذعورة مقهورة وهي تعبر البحر راجعة الى قواعدها والطائرات النازية تتابع الهاربين بقنابلها فمات منهم خلق كثير وهم في البحر يحاولون عبوره نحو انجلترا ، وكانت مأساة انسانية عنيفة ، ولكن كراهيتنا للاستعمار الانجليزي ، جعلتنا نشعر بأن هتلر إنما ينتصف لكل الشعوب التي قهرها وأذلها الاستعمار الانجليزي ! وقد غاب عنا في غمار شعورنا الوطني الضيق ، ان ننظر بعيداً الى مستقبل العالم



تحمل اكليل الغار لضحايا النازية

والانسانية بل ومستقبل بلادنا نفسها فيما لو انتصر هتلر وحقق احلامه في اخضاع العالم كله لحكمه ، ووقعنا تحت وطأة حكم شعب الله المختار ، الشعب الالماني النقي السلالة !

طاف بذهني كل هذا وأنا اسير مع رفاقي في صمت وخشوع فيمقبرة نصف المليون شهيد الذين انقذت تضحيتهم العالم كله من الغزو النازي .

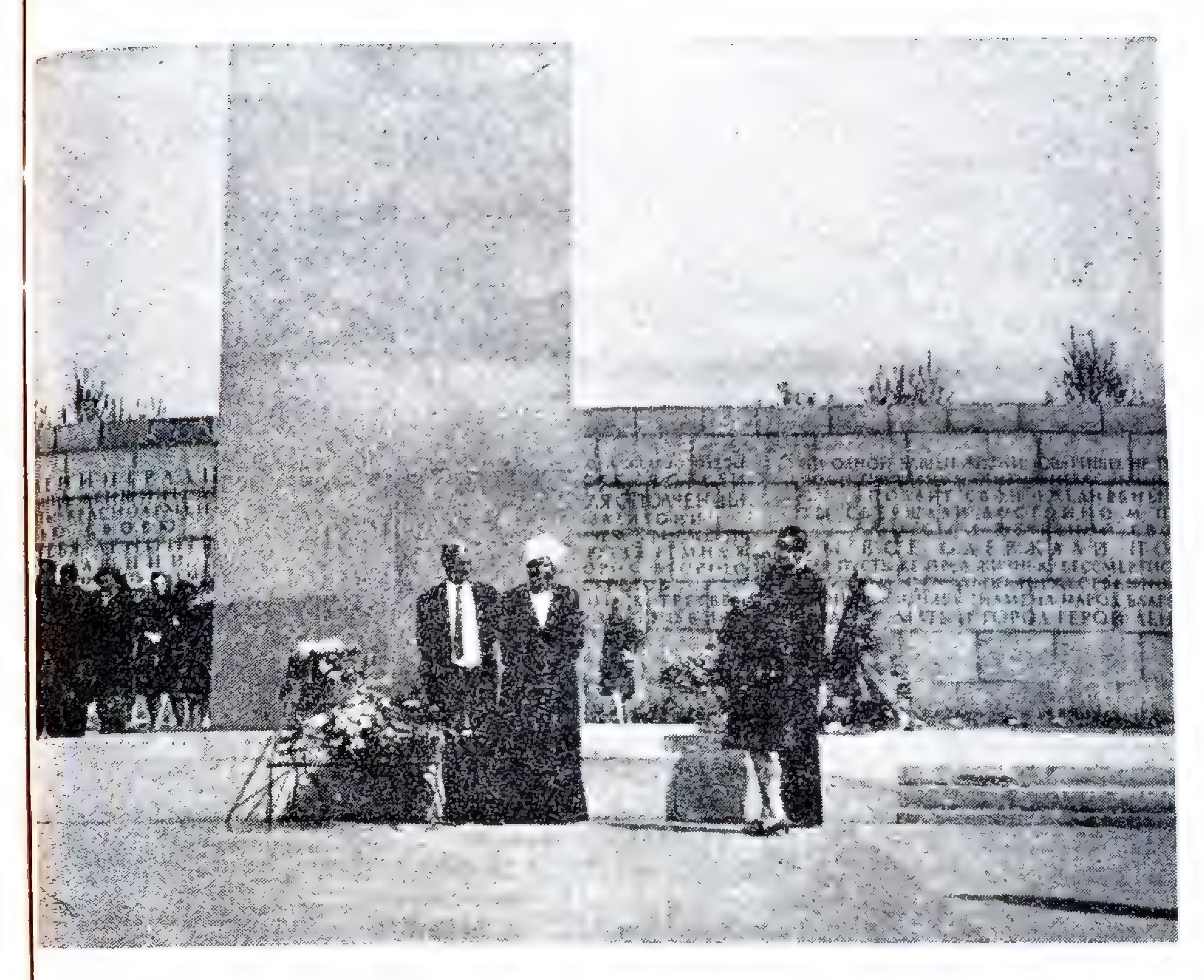
وعند نهاية المقبرة ، وقفنا عند قاعدة ضخمة ، يرتفع في اعلاها تمثال امرأة ، ترمز للوطن الام ، وقد حملت بين يديها اكليلاً ضخماً من الغار كأنها تتوج به هؤلاء الراقدين تحت الثرى باسم الوطن، تقديراً لبسالتهم وتضحياتهم.

وتحت التمثال ، أكاليل من الورد الغض ، يضعها باستمرار زوار المقبرة ، ابداء لشعورهم نحو ضحايا الحرب من أهلهم، كل ام ، وكل أب وكل أخ ، وكل أخت ، من ذوي الضحايا ، يجيء الى المقبرة يحمل زهراً غضاً ، ويضعه عند التمثال ، فهو لا يدري أين دفن من جاء لأجله ، ويخيل اليه ان هذا التمثال للوطن الام ، يضم تحت ثراه ، جثمان حبيبه القتيل .

وخلف التمثال جدار طويل، أبى الفنانون الروس المبدعون إلا ان يزينوه بتماثيل منحوتة تصور أدق تصوير وأروعه معركة لينينغراد التي خاضها أبناؤها ضد الغزو النازي تخليداً لذكرى هؤلاء الشهداء .

وعلى نفس الجدار، خلال هذه التماثيل الرائعة التي تصور المعركة التاريخية ملحمة من الشعر الرائع ، كما وصفها لنا رفقاؤنا هناك ، لشاعرة من نفس المدينة اسمها « بير تولس » ، وكما خلد الفنانون المعركة عن طريق الفن على هذا الجدار خلدتها الشاعرة بهذه القصيدة التي ملأت الجدار كله ، والتي أرى العديد من الزوار يقف خاشعاً عندها يتلوها بعينيه وقلبه متابعاً كلماتها فيتأثر.

وقد طلبت من الصديق (يوري) الذي يجيد العربية الفصحى كما ذكرت عنه من قبل ان يترجم لي بعض مقاطعها فأملاني هذا المقطع :



قصيدة الشاعرة على جدار المقبرة

هنا يرقد أبناء لينتغراد .
رجالاً ونساء وأطفالاً
ومعهم جنود الجيش الاحمر
إيهاً .. مدينة لينتغراد !
إيهاً .. والدة الثورة !
انهم يدافعون عنك

ليس في استطاعتنا ان نعدد أسماءهم ، إنهم كثيرون !
يرقدون تحت حراسة المرمر الخالد ، ولكنني أعلم
ان ليس احد منهم ينسى !

نعم ، لا احد ينسى ، ألا ترى هـذه الحشود التي تهرع يومياً الى المقبرة تحيي في إجلال وتقدير من غيبوا في هذا الثرى ؟

وعدنا الى اول المقبرة لندخل غرفـاً صغيرة ، وضعت على جدرانها صور عديدة اخذت خلال المعركة ، انهـا متحف تاريخي صغير لتلك المعارك التي خاضتها المدينة ، ولكم احزنني منظر اطفال صغار قتلهم الجوع ، وقد انكفأوا على الارض بعد ان فارقوا الحياة !

ومن المناظر التي لا تنسى ، الجنود السوفيات يحاربون في ضراوة في ظروف الشتاء القاسية فهم يخوضون في ارض ارتفع علاها الثلج حـتى بلغ منتصف سيقانهم يؤكد قسوة الشتاء عليهم بجانب قسوة الحرب .. ومع ذلك انتصروا وفي جانب من إحدى الغرف بطاقات الحزب الشيوعي التي كان يحملها الجنود الحمر في جيوبهم وهم يخوضون المعركة ، وقد كانت مخضبة بالدماء ، وقـد وضعت بجانبها بطاقـة كبيرة كتب عليها (قتلوا في سبيل الوطن) او كلهم كما هو واضح من صورهم على البطاقات او جدران الغرفة شباب في العشرين او دونها بقليل .. وتؤكد لـك صورهم والدماء التي لطخت بطاقاتهم الحزبية بشاعة الحرب وشناعتها .

ان زيارة مقبرة لينينغراد ، تعمق معاني السلام ، وتزيد الانسان نفوراً من الحرب وابتعاداً عن كل سبب يوقدها ، ولهذا فإن دعوة الاتحاد السوفياتي للسلام تنبع من ايمان عميق بكراهية الحرب وحب السلام نتيجة لما لقيه هذا الشعب الباسل من بأساء الحرب ومآسيها .

٩

« الطريق الى ستالينغراد »

ان كانت مقبرة لينينغراد توحي لزوارها بمدى التضحية والصمود لشعب هذه المدينة الباسلة وهي تواجه الغزو النازي العنيف ، فان كتاب « الطريق الى ستالينغراد » الذي ألفه شاب الماني شاء له سوء حظه أن يشترك مع جيوش النازية التي زحفت على هذه المدينة الباسلة ، يحكي لنا في أمانة وصدق الأهوال التي خاضها النازيون في حرب ستالينغراد ، ولن تكتمل لنا الصورة التي عانتها المدينة وعاناها جنود النازية وقد توهموا النصر عليها اذا استعرضنا هذا الكتاب الذي يعد وثيقة تاريخية هامة ، لأن كاتبه – كما اسلفنا القول – قد خاض التجربة بنفسه ولم ينقلها عن سواه ، وستالينغراد ولينينغراد ، توأمتان تصوران مأساة تلك الحرب والبسالة الفذه للشعب السوفياتي .

وأتقدم بوافر الشكر للأديب السوداني المبدع حسن احمد حسان الذي قام بتعريب وتلخيص هذا الكتاب وعنه أنقل هذا النص :

« ما أحرى العرب وهم ولا شك تحت وطأة هذه المحنة الرهيبة ، محنة الغزو الاسرائيلي الأخير لأراضيهم ، واحتلالها عنوة واقتداراً ، أن ينظروا ويتمعنوا ويطيلوا النظر والتمعن ، ولكيلا يتسرب على الأقل اليأس والخنوع الى نفوسهم فيما عانت وكابدت شعوب قبلهم من صنوف الأذى والعدوان

سواء في سالف الأزمان او في زمننا الحاضر هذا ، ولكن تلك الشعوب لم تستكن أو تستسلم لذلك العدوان بـل جاهدت وبذلت كل مرتخص وغال حتى اندحر العدوان الى غير رجعة » .

واذا القينا نظرة عبر تاريخنا المعاصر القريب ، ولا حاجة بنا الى التوغل في أعماق التاريخ ، لاصطياد الأمثلة وهي كثيرة ، نجـد أن العرب ليسوا الوحيدين في تعرضهم لأمثـال هذه المحن والمتاعب ، فقد عانى مثلاً اليهود انفسهم ، اليهود الذين يستأسدون الآن على العرب ، الأمرين من الإضطهـاد النازي لهم ثم امتد ذلك الى شعوب اوربا كلها تقريباً ولكن تلك الشعوب لم تستسلم بل قاومت الاحتلال الالماني لأراضيها وفعلت كل جهد واكثر من جهدهـا حتى اندحر العدوان وتمزقت المانيـا نفسها شر تمزيق حتى الآن ، وها هي امريكا ، وهي أعظم قوة عرفهـا التاريخ ، تعتدي بكل خسة ودناءة ، على شعب مسالم صغير ضعيف ، ولكن ذلك الشعب العظيم لم يستسلم ويستكين تحت حذاء امريكا بل أوسعها صفعاً وركلا وأثخنها بالجراح تـلو الجراح حتى أوشك أن يستنزف دمها كله ، وهاهي اخيراً وبعد أن يئست تماماً من إذلال ذلك الشعب الفذ العظيم تحاول جاهدة الخروج من « ورطتها » الشديدة تلك بكرامتها ان بقيت لها كرامة . ثم هاهي اسرائيل ، التي فيما يبـدو لم تستفد ادنى استفادة للأسف من دروس التاريخ وعبره الماضية والحاضرة ، تفعل نفس الشيء مع الشعب الفلسطيني ، ولكن ذلك الشعب قـد استيقظ الآن بعـد طول غفوة ، وهاهم أبناؤه وحتى نساؤه من الفدائيين يذيقون اسرائيل الويلات ويثخنوها بالجراح النازفـة كل يوم حتى تندحر كما اندحرت قبلها دول غاشمة تفوقها قوة عشرات او مئات المرات .

وإن كانت الملاحم البطولية الرائعة التي يسجلها كل يوم الشعب الفيتنامي الفـذ ويسجلها الفدائيون العرب وغيرهم من طلاب الحرية في كل مكان تملأ الآفاق الآن ونقرأ ونسمع عنها صباح مساء ، فقد ملأت الآفاق من قبـل بطولات رائعة وتضحيات قدمها على سبيل المثال سكان مدينة صغيرة في إبان

الحرب العالمية الثانية، وكانت تلك البطولات نقطة تحوُّل في الحرب كلها حتى دارت الدوائر على المعتدي فيما بعد، وأما تلك المدينة الباسلة فاسمها «ستالينغراد» والتي سمعنا ولا شك كلنا عن بطولات أهلها الرائعة، والآن وعن تلك المدينة أود أن أعرض للقراء هذا الكتاب والذي ألفه طالب الماني جامعي اشترك في تلك الحرب واسمه «بينوزايسر» وصور فيه اهوال تلك الحرب الضروس والبطولات الرائعة التي أبداها سكان تلك المدينة، حتى اندحر الألمان على اعقابهم، وكان ذلك اول اندحار يمنون به في تلك الحرب.

وإن كان (بينو زايسر) قد سجل في كتابه هذا ما رآه وكابده في الحرب الاخيرة، فقد سجل زميل له آخر وهو الكاتب الشهير (اريك ماريا ريمارك) كتاباً رائعاً بعنوان: «كل شيء هادىء في الميدان الغربي» وسجل فيه ما رآه من اهوال الحرب العالمية الاولى واندحار الالمان آنذاك، وهذا مصير كل عدوان كما ينبئنا التاريخ ان كان يتعظ الطغاة والبغاة.

يبدأ المؤلف (بينو زايسر) الطالب الجامعي والذي لم يتجاوز عمره العشرين سنة آنذاك، كتابه بالتحدث عن الفترة التدريبية التي سبقت رحيل فرقتهم الى ميدان القتال،وفي ذلك الحين كان الجيش الالماني فخوراً بانتصاراته الساحقة التي احرزها في فرنسا وبولندا وغيرهما من دول اوربا، ومن ثم فما كان احد من الجنود ليخامره ادنى شك في انتصار الجيش الالماني على الروس ايضاً، ولكن الحقائق بدأت تتضح تدريجياً فيما يقول المؤلف عندما وصل اثناء فترة التدريب تلك، قطار من القطارات المخصصة لنقل الجرحى من الميدان الروسي وكان مكتظاً بالجنود الجرحى ومبتوري الاطراف، وبعضهم قد اختفى تماماً خلف الاربطة والضمادات، وفي ذلك القطار التقينا بجندي نعرفه، وروى لنا ذلك الجندي كل شيء، وتحدث، وهو يحاذر ان يسمعه احد يشي به، عن خطورة الموقف ودقته واستماتة الروس او (الحمر) كما كان يسميهم في القتال، وأن القوات الالمانية تواصل زحفها ولكنه زحف يكلفها،

وفي كل خطوة، الكثير من الرجال والعتاد، وكيف ان الروس يتفوقون علينا بكثرتهم ومعرفتهم لأرضهم ، الخ .

وفي ابان تلك الفترة التدريبية شاءت الظروف ان أصاب بكسر في كاحلي ولزمت سرير المستشفى ، وبعد ان تماثلت للشفاء لحقت بفرقتي التي تحركت الى ميدان القتال .

وفي ذات مساء من أمسيات شتاء ١٩٤٢ الموحشة، أقلّتنا القطار الى مدينة صغيرة ، ومن هناك أقلنا قطار آخر يتألف من عدد كبير من عربات البضاعة وعربات نقل الجنود ، وقد نصبت في عربات البضاعة تلك مدافع ضخمة من طراز (هاوتزر) وأخرى شحنت بمدافع مضادة للطائرات وبأنواع اخرى من المدافع والذخيرة ، ولم نكن نعرف الجهة التي يسير اليها القطار، ومن ثم رحنا « نتساءل » الى اي ميدان يمضي بنا هذا القطار يا ترى ؟ ألميدان الشمالي ، أم الأوسط أم الشرقي ؟.. ولم نعرف ونتأكد اننا ذاهبون الى الميدان الروسي إلا بعد ان اجتاز بنا القطار بولندا ثم الحدود السوفياتية عند (برزمسل) ، وهناك وقعت أعيننا ولأول مرة على مناظر الدمار الفظيع الذي صبّته طائراتنا على تلك المنطقة، وهي المنطقة التي بدأ النازيون منها غزوهم لروسيا.

وكنا في تلك الفترة نتجاذب اطراف الحديث، ولكن بمجرد رؤيتنا لذلك الدمار الفظيع ساد بيننا الوجوم والصمت ، وأخذ ذلك الصمت والوجوم يزدادان ويسيطران علينا اكثر فأكثر كلما توغل بنا القطار بين الأنقاض وبقايا العربات والدبابات المحترقة ، وراح كل منا يتساءل بينه وبين نفسه : « ترى ماذا سنلاقي من أهوال في هذه البلاد ؟ وهل سيقدّر لنا الرجوع سالمين الى أهلنا ونراهم مرة اخرى ؟ » .

وبعد سير طويل مملّ وصل القطار الى النقطة التي يقصدها، وسمعنا بمجرد وقوفه ، صوتاً جهورياً يأمرنا بالنزول والوقوف امام عرباتنا ، وكانت الريح باردة وتعوي عواء حزيناً كأنه أنات الثكلى ، وما لبثنا ان أُخذنا الى القاعدة

التي عيّنوها لنا ومنها وُزّعنا على الفصائل المختلفة . وكانوا يسألون الجنود عما كانوا يفعلون في حياتهم الماضية والمهن التي مارسوها ، وهنا نصحنا صديق جندي من المحاربين القدامى واسمه (كوفك) بأنه من الأصوب لنا ان ندّعي المعرفة بميكانيكا السيارات وقيادتها، حتى نُضمّ الى احدى الوحدات الميكانيكية فنتجنب من ثم السير مسافات طويلة على أقدامنا . وفعلاً وفي اليوم التالي نقلت مع خمسة من الجنود الجامعيين الى وحدة النقليات بالاضافة الى احد عشر جندياً آخرين . وكان بين اولئك الجنود الجامعيين شاب خفيف الروح موفور الحكمة لاذع السخرية ، أطلقنا عليه لقب (العجوز) لأنه كان كسولاً يكره العمل والتنقل الكثير !..

وبدأت فرقتنا ، فرقة المهندسين، وهي تسير دائماً في المؤخرة، في التعرض الى غارات ومناوشات متواصلة يشنها علينا الروس ، وكانت طائراتهم تحلق على مسافات قريبة من الارض ثم تصبّ علينا حِممها .. وفي غارة من تلك الغارات ، وقد فاجأتنا ذات مرة اثناء تجوالنا في احد الشوارع ، اخذت الطائرات تمطر البلدة التي نعسكر بها بوابل من القذائف التي كانت تدمر كل شيء ، سقطت قذيفة من تلك القذائف بالقرب من الخندق الذي اختبأنا فيه ، وحفرت حفرة واسعة في الشارع وأصابت شظاياها المتطايرة ثلاثة من جنودنا، وعندما اسرعنا اليهم لم نستطع التعرف على اثنين منهم إذ مزقتهما الشظايا افظع تمزيق ، وهبطت روحنا المعنوية الى ادنى حد ، وسادنا ذهول شديد ونحن نرى شابين كانا منذ لحظة مفعمين بالآمال والأحلام ويملآن المكان ضجيجاً ومرحاً، واذا بهما في لحظة كتلة من لحم وعظم ودماء .

وأما الجندي الثالث فقد بترت الشظايا احدى رجليه، وأخذ الدم يتدفق كالشلال، والجندي يرسل انيناً يدمي القلوب، وأسرعنا اليه محاولين اسعافه، ونقلناه الى المستشفى حيث توفي بعد وصوله بقليل .

وتوالت علينا الغارات في دفعات متتالية وكأنها لا نهاية لها ، وكانت

تنتزعنا من أسرّتنا في منتصف الليل ونسرع الى المخابىء وكأن بنا مساً من الجنون، ثم تتوالى الانفجارات التي تهز الارض هزاً والتي تكاد تصيبنا بالصمم، وفي اثناء ذلك اصيبت عربة المطبخ وقتل الطباخ واثنان معه ، فأعددنا لهم حفرة واريناهم فيها ونحن موقنون بأن هذا مصيرنا جميعاً في هذه المقبرة التي اسمها الجبهة الروسية .

وفي مساء ذلك اليوم اشتد البرد الى درجة فظيعة حتى اضحت قيادة السيارة شبه مستحيلة ، ولو كان الامر يقتصر على البرد لهان ، ولكن زيادة على البرد فالغارات لا تزال مستمرة بلا انقطاع وكذلك مناوشات القناصة ورجال العصابات الروس .

وذات مرة حاصر الروس اربعة منا وأخذوا سجائرنا عنوة ، وعندما هرع زملاؤنا الى نجدتنا اختفى الروس وكأنهم اشباح .

وفي تلك الايام الرهيبة والتي لن انساها ولو امتد العمر بي الى الف سنة ، هبطت الحرارة عشر درجات تحت الصفر وأخذت اسناننا تصطك بعنف حتى اوشكت ان تتكسر ، وراحت اجسامنا تهتز اهتزازاً شديداً أليماً ، واسود لون شفاهنا والبرد يفري اصابعنا ثم يزحف على اذرعنا وأقدامنا وأوشكت ان اصاب بالجنون . وكنا ، كيلا نتجمد ، نجري هنا وهناك طوال الليل ، ونتلاكم مع بعضنا البعض التماساً للدفء والحرارة .

وفي صباح ذات يوم من تلك الايام اوشكنا على الموت فعلاً من البرد، وتجمد الشاي في (التيرموس) وحاولنا اشعال نار ، وفيما نحن منهمكون في ذلك اذ بالمكان كله يهتز من جراء انفجار رهيب ، ورأيت المبنى الذي اتخذناه مخزناً للذخيرة قد اصبح ركاماً وأنقاضاً، وتحت الركام وتحت الانقاض رأيت أذرعاً وأقداماً مقطوعة، تتحرك في اختلاجات عنيفة ! وأخذنا نجري هنا وهناك كالمجانين ونحن نتساءل عما حدث ، وما لبثنا ان عرفنا ان احد الجنود قد

تعثر في سلك ممدود ولم يرتب في امره ، وكان السلك موصولاً بلغم فانفجر ، ومن تلك اللحظة صرنا نرتاب في اي شيء نجده .

ولو قدر لأحد ان يرى منظرنا آنذاك لأغرق في الضحك ، فقد كان كل منا يبدو وكأنه دب، فقد كان الجندي منا يلبس زوجين من الملابس الداخلية وبنطلونين وصدريتين،وفوق هذا كله،الزي العسكري ومعطف ثقيل مصنوع من الفراء وطاقية،ومع ذلك فقد كنا نرتجف من البرد وكأننا لا نلبس شيئاً .

وفي اثناء سيرنا صوب الميدان رأينا المعسكرات التي يحتجز فيها الاسرى الروس والذين صدرت الينا الاوامر بتسخيرهم في عمليات الشحن والتفريغ ، ورأينا الحراس يضربون اولئك الاسرى بالسياط ضرباً مبرحاً ، وهم يترنحون كالسكارى من وطأة الضرب والتعذيب والبرد ، إذ لم تكن على اجسادهم ، بالرغم من ذلك البرد الرهيب ، سوى ملابس ممزقة بسيطة .

ولم يداخلني ادنى شك في ان من ماتوا وآوتهم المقابر القريبة من المكان اكثر بكثير من هؤلاء الاحياء ، وكانت الكلاب الجائعة الضالة التي تركها اصحابها في أبان جلائهم عن القرى قد اخذت تهاجم كل من تلقاه في وحشية ، وكان الاسرى بدورهم يهاجمونها ويقتلونها ويشوون لحمها لكي يغالبوا به الجوع!

وفي ذات ليلة من تلك الليالي الرهيبة ، صدرت الينا الاوامر في منتصف الليل بالذهاب الى محطة السكة الحديدية ، وهناك انهمكنا نحن والاسرى في تفريغ قطار للذخيرة ، وكنا جميعاً نعمل بجهد وسرعة ، وفجأة سمعنا أزيز طائرات مقبلة نحونا فأسرعنا للاختباء وأطفأنا الانوار ، وحومت الطائرات المغيرة وألقت شعلات مضيئة اضاءت المكان كله، ثم توالى انهمار القنابل كالمطر، واهتزت الارض تحت اقدامنا وانتهت الغارة ولكن بعد ان صار المكان كله انقاضاً وركاماً . وخرجنا من المخبأ ونحن كالسكارى نترنح ، ورأيت على بعد خطوات مني رجلاً بقرت شظية بطنه وامتدت يداه تحاولان عبثاً ان تردا امعاءه الى بطنه والدم يخرج من فمه مختلطاً بالزبد،وأما عيناه فكانتا مفتوحتين

الى أقصى حد وقد اخذ كل انسان منها يتدحرج بسرعة كبندول الساعة من اليمين الى اليسار .

وسبّب لنا ذلك المنظر الفظيع رعباً وفزعاً لن ننساهما ابداً ، وتردّينا في هوّة من اليأس ليست بذات قرار وكنا نتمنى الموت بسرعة لكي يخلصنا مما نحن فيه . ولم نمكث اياماً قليلة بعد ذلك حتى صدرت الينا الأوامر ، وكأن الله قد استجاب لدعائنا ، بالتحرك الى جبهة القتال الحقيقية .. الى ستالينغراد نفسها .

ووصلنا ميدان القتال بعد صعوبات جمّة كثيرة، وكان قائد فرقتنا الجامعية ضابطاً شاباً مهذباً اسمه (شتراوب) وسرعان ما صرنا اصدقاء ، وذات مرة دعانا الى تناول قهوة ساخنة معه ثم أخبرنا ان بيننا وبين خطوط الروس قرية فيها بعض السكان وتقع في وادٍ عميق ، وان من يستطيع السيطرة على تلك القرية يحرز كسباً استراتيجياً ذا أهمية بالغة ، وارتأينا من ثم احتلال القرية ، ولكن بعد ان نتأكد طبعاً إن كان الروس قد سبقونا الى احتلالها أم لا ، وعددهم وأسلحتهم ، الى غير ذلك من المعلومات الهامة والتي لا بد منها في مثل هذه الظروف .

وتسللنا بأسلحتنا في صمت وهدوء وهبطنا الى القرية ، فبلغنا اول كوخ فوجدناه خالياً وكذلك بقية الأكواخ المجاورة . وفي اثناء تنقلنا بين تلك الأكواخ وجدنا امرأة تجلس داخل كوخها وهي منحنية على مائدة امامها وكأنها نائمة ، وعندما اقتربنا منها وجدناها ميتة وقد استقرت رصاصة في رأسها وبجانبها بعض الخبز الذي لم تنتهِ من أكله وقد لوثه الدم !..

وازدادت روحنا المعنوية هبوطاً على هبوط ونحن نرى هذه الأهوال الرهيبة ، وساد بيننا الصمت والوجوم ... وفجأة سمعنا احد زملائنا يقول لنا بصوت خافت مضطرب : أسرعوا .. أسرعوا بالاختباء !.. فأسرعنا بالاختباء خلف حائط متهدم ، واذا بالرصاص وفي نفس تلك اللحظة ، ينهال

علينا كالمطر من كل جانب، وأصابت احدى الرصاصات (العجوز) ، ولكن الإصابة كانت طفيفة وسرعان ما قمنا بتضميد جرحه .

وظهر لنـا بعد ذلك مباشرة ان عدد الروس الذين هاجمونا كبير جداً ، وانهم يتقدمون في شكل قوس محاولين الإحاطة بنا . وازداد موقفنا حرجاً وخطورة والروس ينظرون الينا في صمت كما ينظر الحيوان المفترس الى فريسته قبل ان يلتهمها ، ولم ندرِ ماذا نفعل ... وأخيراً خطر لنا ان يحاول بعضنا التسلل خلف الروس وإطلاق الرصاص عليهم ، وفعلاً نجحت الحيلة وانسحب الروس، ولكن كانت ذخيرتنا نحن ايضاً غير كافية، فلم نرَ بداً من الانسحاب من القرية وتركها للروس .

وكان تجمُّد الاطراف من الاشياء المألوفة جداً في تلك الحرب ، إذ كان الدم يتجمد في الأقدام نتيجة الوقوف على الثلج الذي يغطي كل شيء تمامـاً ، وكثيراً مـا بُترت اعضاء جنود بسبب ذلك ! وإن لم يسارع الجراحون ببتر تلك الأعضاء فوراً فانهـا تصيب الجسم كله بالتعفن ثم الموت . وحدث ذات مرة ان خلعت حذائي ولاحظت ان رائحة غير عـــادية تنبعث من قدمي ، وأسرعت الى المستشفى وهناك أخبرني الأطباء بأني حسن الحظ جداً ، لأنني لو تأخرت قليلاً لانتشر المرض واضطروا لبتر قدمي تماماً .

وقضيت بالمستشفى بضعة أسابيع الى ان شفيت قدمي ، ثم أُلحقت بفرقتي التي تحركت قبلي الى ميدان القتال والذي كان على أشده آنذاك ، فقـد كان دويّ المدافع الروسية يصمّ الآذان ، وبادلناهم قذائف بقذائف ثم صدرت الينا الأوامر بالهجوم فزحفنا اليهم حتى وصلنا خنادقهم ، ووصلت الى احد الخنادق وقفزت الى داخله فوجدت فيه جندياً مختبئاً ، وفي لحظة ودون تردد غرست (سونكي) البندقية في رقبته الى آخره ! فجحظت عينـــا الجندي وتشبث بحزامي ، ولكن مـا لبث ان مال رأسه ولفظ أنفاسه ، وكان شاباً صغيراً ووسيماً !..

وكانت لحظة هول لن أنساها طيلة حياتي ، فقد صرنا في هــذه الحرب القذرة الكريهة نقتل اشخاصاً لم يسيئوا الينـا قط وليست بيننـا وبينهم أية ضغائن او أحقاد او حتى معرفة عابرة .. وكانت هـذه اول مرة أقتل فيها انساناً بالسلاح الأبيض .. وأفزعتني الجريمــة النكراء ، وأفزعتني اكثر رهبة الموت .

واستولى الجيش الالماني في ذلك الوقت على (كييف) عـاصمة اوكرانيا بعد قتــال ضارٍ عنيف ، وشرعت فرق منه تزحف صوب (موسكو) و (لينغراد) في الشمال، وفرق اخرى تزحف صوب (ستالينغراد). وكان الروس يتراجعون ويحرقون وراءهم كل شيء ، وهي نفس الخطة التي اتبعوها مع نابليون في سنة ١٨١٢ ، وكانوا – اي الروس – في اثناء تراجعهم يدربون قوات جديدة على حمل السلاح ويتلقون امدادات لا حصر لهـا من الأسلحة والطائرات من حلفائهم .

واشتد القتال ذات مرة الى درجة رهيبة ، وخسائرنا في الارواح والعتاد تزداد باستمرار حتى ان قتلانا بعد احدى تلك المعـارك ، تكومت في ثلاث طبقات بعضها فوق بعض .

وأيقنا منــذ ذلك الحين ، ان الدوائر قد دارت علينا ، وان كفة النصر قد تحولت الى الروس ، وأخذت قواتنا تتراجع تحت وطأة الضربات العنيفة، وطوقت قواتهم العاتية الجيش الالماني السادس في حوض نهر (الدون)، ولكنه تخلص من الحصار بعد جهد جهيد واتجه نحو ستالينغراد ، للانضمام للفرق التي سبقته اليها ولكي يتحصن هناك بين الخرائب والأنقاض ، ومن ثم فقـد صار الضرب كله يتركز حول ستالينغراد ، الـتي صارت كلها خرائب وأطلالاً .. ونجح الالمان بعد خسائر رهيبة في الاستيلاء على جزء من ستالينغراد ، ولكن بعـد معارك وحشية ضارية على سطوح المنازل وفي داخلها وفي الغرف وعلى سلالم المنازل وفي الشوارع ... واستبسل السكان في الدفاع عن مدينتهم ببسالة

منقطعة النظير ، فقد كانوا يحاربون بضراوة وبكل شيء حتى بسكاكين المطبخ ! وشرع الروس يوسعون حصارهم حول ستالينغراد ونحن بداخلها ، وكنا كمن يغرق في (فنطاس) ماء كبير تدريجياً .

وفشلت كل الجهود التي بذلتها القيادة الالمانية العليا في فك الحصار او اقامة اتصال بين جيوشنا في (الفولجا) و (القوقاز) وكانت نتيجة ذلك الحصار المحكم اننا لم نستطع التقدم خطوة للأمام لأول مرة طيلة تلك الحرب، ثم بدأت خطوطنا في التفكك والانهيار . واعتقدنا اول الامر، ونحن الذين اعتدنا على احراز الانتصارات بلا توقف ، ان القيادة الالمانية قد وضعت خطة محكمة ومن ثم فسرعان ما تواصل جيوشنا الالمانية في الجبهة انتصاراتها ، وراجت اشاعات عن اسلحة فتاكة وطائرات ودبابات ضخمة في طريقها الينا ، وعن هجوم الماني كبير من الجبهة الشمالية لكسر حلقة الحصار ، بل وراجت اشاعة عن سلاح سري يسحق جيوش الاعداء ويحولها الى رماد ، ولكن سرعان ما اتضح لنا اننا كنا نحلق في اجواء الاوهام ، وبدأنا نفقد الامل تدريجياً ، وازداد الحصار علينا إحكاماً ووصل الى درجة ان سياراتنا كانت تقف بلا حراك ولا نستطيع السير الى اية جبهة ، وفقدنا بسبب الغارات المتواصلة مخازن ضخمة تحتوي على اطعمة وثياب وأسلحة .

وتراكمت القاذورات على اجساد الجنود ، وامتلأت بحشود من القمل والحشرات، وأخذت تنهمر من أعين الجنود دموع الفشل والهزيمة والانكسار ! وانهارت اعصاب كثير من الجنود فقتلوا انفسهم بأيديهم ، وصار الثلج لهم قبوراً وأكفاناً الى الابد . وازداد تساقط الجنود إما برصاص الروس او يأساً وأعياء ، وضمهم ذلك المحيط الواسع من الثلج في حناياه، وأكلنا من الجوع كل شيء حتى لحم الخيل وغيره .

وفقدت جميع اصحابي وأصدقائي ما عدا (فرانتسل) والذي اصبح حطام شاب ، وفقد كل امل في ان يرى أمه وأباه وبيته مرة اخرى، وصار يتحرك

بهدوء ووجوم كأنه الشبح . وفي اثناء فترة الهدوء الذي كان يسود الجبهة ، كنا نجلس انا وفرانتسل ونخرج من جيوبنا صور اهلنا ومنازلنا وقريتنا وتعود بنا الذكريات القهقرى الى تلك الايام التي لن تعود ، وكانت هـذه هي الفترة الوحيدة التي يستيقظ فيها فرانتسل من شروده ووجومه، وفجأة تهتز الارض بدوي القذائف ونسقط من سمـاء الذكريات الجميـلة الى ارض الواقع المرير ، وندرك إذ ذاك قيمة تلك الكنوز التي فقدناها ولا تقدر بمال او بأي شيء آخر: الاهل والوطن والهدوء والليالي الحالمة والطعام الساخن والفراش الدافىء !

وكان الروس آنذاك قد نجحوا في وقف الزحف الالماني الكبير في جميـع الجهات ، وأيقنا تماماً ان الدوائر قد بدأت تدور علينا ، وتفشى بين صفوفنا الاعياء والهزيمة ، فقد كانت الحرب بلا امل ولا نهاية ، وفي هذه الاثناء قُتل العجوز وفقدنا بسالته وسخريته وفكاهته الى الابد .

ثم داهمنا الشتاء الثـاني في تلك الجبهة ، وذات ليلة رهيبة البرد تجمد كل شيء ، وكنا نحتمي بالخنادق والحفر من القذائف والرصاص، ولكننا كنا نجد الموت في داخلها بسبب البرد والجليد، وأخذ ذلك الجليد يزداد صلابة وكثافة حتى لم تعد القنابل تؤثر فيه ، فكأنه الصخر الصلد !

وقبل رحيلنا الى الميدان الروسي كانت القيادة الالمانية قد وعدتنا بأن يعود الجنود من الميدان في ظرف سنة واحدة ، ولكن عندما توالت علينـا الهزائم لم تجرؤ القيادة على اعادتنا الى المانيا حتى لا يعرف الشعب ويتبين الفرق الشاسع بين الدعاية التي كان يطلقها (غوبلز) وبين الحقيقة المرة المجردة ، وكان هنالك امل واحد نتشبث به كلنا ، وهو ان يصاب الجندي منا بجرح بليـغ يستدعي نقله الى احـد المستشفيات البعيدة عن الميدان ثم اعادته للوطن . ووصل الامر بنا ان كان بعضنا يحدث بنفسه الاصابات ، ولكننا كنا نتفادى – طبعاً – ان تؤدي الى عاهة او عجز مستديم ، مما يرى الهول الذي كنا نعيش فيه .

وشرع الروس يشنون هجومهم الساحق الكبير بين نهري الفولجا والدون واخترقوا خطوطنا ، ثم ازداد ضغطهم علينا شدة وإحكاماً ، وتوالت هجماتهم طيلة ساعات اليوم بلا انقطاع ، وبلغت المأساة ذروتها عندما سحقوا جيشنا المرابط في (ستالينغراد) في قتال لم يكن لألمانيا فيه ادنى رجاء او امل .

وبدا لنا الامر وكأنه خيال لا يمكن تصديقه ، وأخذنا نتساءل : كيف تترك القيادة الالمانية هذا الجيش الكبير يقع في هذه المصيدة الرهيبة ؟!

وأخيراً جاءت نهاية زميلي الوحيد (فرانتسل) ، فبينما كان يقف ذات مرة الى جانبي في احد الخنادق ، وقد انحنى على حافته ينظر الى الخارج ، اذا بصوت رصاصة يدوي في الفضاء ، واذا بـ (فرانتسل) يسقط الى جانبي كأنه (بالون) ضخم تسرب هواؤه فجأة ، ونظرت اليه والفزع والرعب يملآن قلبي ورأيت خيطاً من الدم ينساب من جرح في رأسه ، فقد اخترقت الرصاصة عينه وحطمت جمجمته .. وشعرت بلهب يغلي في رأسي وينحدر الى جسمي ولم أشعر إلا وأنا اطلق صيحة رهيبـة مدوية ، لعلها أفظع صيحة اطلقها في حياتي ، وتراءت امـام عينيّ في لحظة كل المشاهد التي رأيتها في تلك الحرب الرهيبة والاخوة الذين فقدتهم والدمار الذي حاق ببـلدي وبكل شيء ، ولم اشعر إلا وأنا ممسك بمدفعي الرشاش ، وأقفز خارجاً من الخندق وكأن بي مساً من الجنون ، وأهاجم خنادق الأعداء وأحصدهم حصداً وأنا أجري هنا وهناك ، وكان النهار قـد بدأ يبزغ والضباب الكثيب يغطي كل شيء بلونه الابيض ، ثم اذا بي لا أشعر بعد ذلك بشيء .

وكأنما مضى عليّ في ذلك الإغماء دهر كامل ، ثم تناهى إليّ صوت بعيـد وكأنه آتٍ من عـــالم آخر ، يستحثني على النهوض وركوب عربة ، فنهضت وركبت تلك العربة التي كانت مخصصة لنقـل الجرحى ، وكنت أشعر بثقل شديد بكتفيّ ، فقد تورمت ذراعيّ وانتفختا وقد غطاهما الدم و ...

ونُقلت الى المستشفى، وتراءى لي وكأنني انظر بين ضباب كثيف الجراح

وقد شمّر عن ساعديه وأخذ يعمل بمنشاره وبأقصى سرعة في عظام الجرحى، وكان بينهم ضابط شاب وقد برزت عظام ذراعيه ، وفجأة تحامل على نفسه ووقف على قدميه وأخذ ينشد بصوت متحشرج نشيد (المانيا فوق الجميع) ! ثم بدأ صوته يتلاشى وخارت قواه وسقط قبل ان يكمل ذلك النشيد الذي بدأ بالنصر وانتهى بالهزيمة المرّة !..

وكان جرحي خطيراً، ورؤي ان ارحل الى وطني... وبينما كنت اركب الطائرة التي تنقل الجرحى ، رأيت وكأنني في حلم او كابوس رهيب ، تلك الصواريخ اللعينة التي يطلقها الروس إيذاناً ببدء هجوم جديد ... وكان هذا آخر عهدي بتلك الحرب وتلك المقبرة التي اسمها (ستالينغراد)، والتي كانت نقطة التحول في الهجوم الالماني على روسيا، بل نقطة التحول في الحرب كلها .

* * *

ما زلنا نجوب هذه المدينة الجميلة (لينينغراد) التي ظلت عاصمة لروسيا في عهد القياصرة منذ عام ١٧١٢ حتى عام ١٩١٨ عندما انتصرت الثورة الاشتراكية واختار لينين موسكو عاصمة للبلاد ، على ان هذا لم يضعف من مستوى لينينغراد بل زادت عمراناً وجمالاً .

وفي اجمل ساحات المدينة قرب نهر نيفا وقفنا عند تمثال القيصر بطرس او (بترو العظيم) كما يقولون،وقد امتطى حصاناً ضخماً رفع رجليه الاماميتين وارتكز على الخلفيتين ، و (بيترو) يمد يده نحو بحر البلطيق الذي استطاع ان يفتح فيه منفذاً الى اوربا .

قلت لمرافقي : اراكم قد ابقيتم على تماثيل القياصرة وفي اعظم الميادين ولم تزيلوها وقد أزلتم عهد القياصرة وأقمتم على انقاضه عهدكم الاشتراكي ، فلماذا ؟

فابتسم وقال : ولِمَ نزيلها ؟ انها جزء من تاريخنا الذي يجب ان يبقى ! ان القيصر بطرس الذي ترى تمثاله هنا ، هو جزء مهم من تاريخنا .

تمثال القيصر بطرس في لينينغراد

ولم اعجب بعد هـذه الاجابة ، ان رأيت جموعاً من التلامذة والتلميذات مع مدرّساتهم يقفون عند قاعدة تمثـال القيصر بطرس يستمعون الى احاديث مدرّساتهم عن رجل يمثل جانباً هامـاً من تاريخ وطنهم ، رغم انـه احد القياصرة .

ولا بد هنـا من ان اشير بأن في لينتغراد وحدها اكثر من اربعين معهداً دراسياً فوق المرحلة الثانوية ، وجامعة تضم عشرين الف من الطلبة والطالبات.

ولم يمكننا الوقت من زيارة المكتبة الضخمة التي تتوسط المدينة والتي قال لنـا مرافقونا انها تحتوي على اكثر من ١٤ مليون كتاب ، وفيهـا كثير من المخطوطات التاريخية النادرة .

وهذه الكتب والمخطوطات بكل اللغات العالمية الحية ، وقـد تضاعف اسفي عندما تأكدت ان مجموعة ضخمة من الكتب والمخطوطات العربية تضمها هذه المكتبة ولم يتح لي مشاهدتها والتعرف اليها .

وسرنا قليلاً من تمثال (بيترو) لتواجهنا كنيسة فخمة جذبنا اليهـا بريق الذهب الذي يشع من قبابها العالية ، وقد حسبت ان قباب الذهب قد خلفتها في العراق على قبور أئمة الشيعة الذين بالغ الشيعة في بناء أضرحتهم بالذهب ، حتى الابواب والنوافذ جعلوها من الذهب غير مكتفين بالقباب! وهاأنذا اشاهد في لينتغراد منظراً مماثلاً ، فكل قباب هذه الكنيسة تبرق بالذهب، وحدثني مرافقي انها قد بنيت في القرن الماضي عندما كانت المسيحية مزدهرة هنـا ، وكانت تعتبر دين الدولة الرسمي ، وقد استمر بناؤها ثلاثين عاماً وكان يصلي فيها ما يقرب من ١٤ الف مسيحي ، وقد قام ببنائها الاتراك المسيحيون .

وسألت : هل يصلـّى فيها اليوم ؟ فأجابوني : انها الآن مجرد متحف ولا يقصدها مصلون . لم ابحث طويلاً في هذا الامر، فقد لحظت ان الكنائس هنا تـكاد تكون مهجورة تماماً من المصلين ، بينما ظلت مساجد المسلمين على قدر من النشاط الديني .

وأشهد أني فوجئت في براغ ـ عندما زرتها عقب زيارتي للاتحاد السوفياتي ـ بما لم أكن أتوقعه قياساً على ما لحظت هنا من خلوّ الكنائس من روّادها ، إذ بينما كنت أتجول في منطقة في قلب المدينة ، كالمحطة الوسطى عندنا ، وجدتني امام باب كنيسة مفتوحاً ، والناس يدخلون رجالاً ونساء من مختلف الاعمار ، وقد لحظت بينهم بعض الشبان الضباط بأزيائهم العسكرية يدخلون الكنيسة. ودخلت ساحتها ، حيث شهدت في ركن الساحة تمثالاً كبيراً للمسيح وقف امامه عدد من الرجال والنساء في خشوع واضح ، بعضهم يهمهم بالصلوات ، وبعضهم يقصد صندوقاً للنذور وُضع بجانب تمثال المسيح ، فيضع فيه قدراً من النقود ، ثم يدخلون الكنيسة التي اكتظت بهم لأداء القداس الديني ... هذا المشهد الذي لقيته بالصدفة في مدينة براغ لم أشهده في تجوالي في الاتحاد السوفياتي . وكما ذكرت من قبل ، فقد رأيت المسلمين يؤدّون صلواتهم في مسجد لينينغراد ، والكنائس شبه معطلة او لعلها معطلة تماماً – لا استطيع ان أجزم – ولكن براغ فاجأتني بهذا المشهد الديني المسيحي ، وأعتقد ان ليس هناك مساجد للمسلمين في براغ او غيرها من مدن تشيكوسلوفاكيا ، لعدم وجود مسلمين فيها من أصل سكانها ، وليس الحال هكذا في الاتحاد السوفياتي .

ونحن نمرّ في مكان حافل بالشجر والزهر ، أشار مرافقونا الى أجمة ملتفة الشجر ، فقالوا : هنا جُرح الشاعر بوشكين في مبارزة مع احدهم.. وذكرت هذا الشاعر الذي تجري في عروقه دماء افريقية أثيوبية .

كيف انتقل الدم الافريقي الاثيوبي الى هنا ؟ فأثمر هذا الشاعر المبدع والذي صار من أعلام الشعراء العالميين ؟ وقد حدّث رواة تاريخ لينين انه كان مفتوناً بهذا الشاعر ويدمن قراءته .

ولنعد الى اثيوبيا في قصة احدى غزوات الاتراك اليها لنرى بين الصبية الذين سباهم الاتراك الصبي (هانيبال) سليل الملوك ، لقد غار الاتراك على ملك ابيه ، وسبوا الصبي الصغير والدموع تنساب من مآقي امه !

وتدور الايام ، وإذ بالفتى هانيبال سليل العز والمجد يشق طريقه في بلاط القيصر بطرس هنـا في بطرسبرج - لينينغراد - ويصير بفضل قوة شخصيته الآسرة أثيراً لدى القيصر ، ويقوى نفوذه ويشتد ، ويتزوج (تادزا) وأنجب منها (يوشكين) الذي قالوا عنه انه كان يحمل بعض الملامح الافريقية في لونه.

وعاش الفتى طليقاً مرحاً ، ذا غزوات في دنيا الحب ، وبدأ يقول الشعر ، ويلفت الانظار اليه شيئاً فشيئاً . وكان القيصر لا يرتاح اليه لأن في شعره شيئاً من عبير الحرية ، ذلك العبير الذي يكرهه القياصرة !

ورأى القيصر نيكولاس أنه من الخير ان يقرّب اليه(يوشكين) ويحتضنه ، وقد فعل .

وفي احدى حفلات القصر الراقصة الحافلة بالجمـال شهد (يوشكين) تلك الفتاة التي قالوا عنها انها اجمل فتاة في روسيا ، وغالى بعضهم فقال انها اجمل فتاة في عصرها كله ، انها الحسناء (ناتاليا) .

وفتن بها يوشكين واستطاع بعد جهد كبير ان يتزوجها ، فقد مانعت أمها اولاً في هـذا الامر ، إذ كانت تطمع في زوج خير من يوشكين الذي صناعته الشعر !

ونعم يوشكين بحبه ، ولكن ناتاليا ذات الجمال الصارخ كانت قبلة الانظار ، تسمع كلمات الحب والاعجاب اينما اتجهت ، فكان ذلك يزيدها زهواً بجمالها ، وتلهب الغيرة قلب يوشكين .

وجزع يوشكين عندما علم ان القيصر مفتون ايضاً بناتاليا ، وانه يريدها لنفسه . وما كان لسيدة من سيدات البلاط ان تتمنع عن القيصر متى ارادها ، وما كان لزوجها إلا الرضاء تقرباً للقيصر .

ولكن يوشكين - الافريقي الدماء - اخذ يهرب بها من حفلات القصر ، ويرفض حضورها في اعتذار مهذب ، فلا يحضر الولائم التي يقيمها القيصر في

هذا القصر الضخم ويدعو لها سيدات البلاط والنبلاء حيث يدور الشراب ويدور الرقص ويستمتع القيصر.. كان يخاف على ناتالا من جنون القيصر بها ، ان يستحوذ عليها ويفجعه في حبه .

وظهر في حياة ناتالا شاب اشقر جميل ، ضابط في الجيش ، هام بها حباً ، ومالت اليه ولكنها لم تذهب في هذا الميل بعيداً .

وتتعدد الروايات هنا ، ويقولون ان يوشكين تلقى خطابات تحدثه عن علاقة زوجته ناتالا بالضابط الجميل. وتشتعل الغيرة، ويدعو الضابط للمبارزة، وفي هذه الأجمة التي وقفنا عندها قليلاً حدثت المبارزة التاريخية بين يوشكين وغريمه الضابط الذي احب ناتالا .

ويقول الرواة: ان الضابط كان قد تزوج من شقيقة ناتالا الكبرى (كاترين) ولكن هذا الزواج لم يزد حبه لناتالا إلا تأججاً ! وضاعف من غيرة يوشكين.

وفي تلك المبارزة اصيب يوشكين ، وتقضي عليه الاصابة . ويعترف وهو يئن من الالم بأنه يحب ناتالا ولا يشك في شرفها .

لك الله يا يوشكين..ها نحن من افريقيا، لصق الارض التي انجبت هانيبال وأمه، وأباه الذي غدر به الاتراك، جئنا نحيي الارض التي عشت فيها شاعراً مبدعاً ما زالت اهازيجه ترقص القلوب ، وعاشقاً مفتوناً مسحوراً ، وشجاعاً جسوراً يهابك القياصرة .

فسلام عليك – يوشكين – من اخوانك الافريقيين .

وزرنا دار جريدة (البرافدا) اليومية التي تصدر في لينغراد، وهي غير (البرافدا) المعروفة التي تصدر في موسكو، وتلقانا رئيس تحريرها بترحاب، وجلس الينا يجيب على اسئلتنا ، ومنه عرفنا ان الجريدة تطبع يومياً اربعمائة وعشرين الف نسخة ، منها ٣١٠ آلاف اشتراكات ثابتة ، والباقي يباع لغير المشتركين ، وتضم الصحيفة ٤٨ محرراً ، وتتلقى سنوياً اكثر من خمسين الف

رسالة من القراء.. وتعتبر جريدة البرافدا في لينينغراد من اقدم الصحف هناك اذ سيحتفلون في شهر نيسان (ابريل) ١٩٧٠ بمرور خمسين عاماً على صدورها.

ويتمتع محررو الصحف بوجـــه عام بوضع مادي ممتاز وتعتبر أجورهم من اعلى الأجور في الاتحاد السوفياتي، ولهم ضمانات مريحة للغاية عندما يحالون للمعاش وهو اختياري ويستطيع أي صحفي ان يواصل عمله مـــا دام قادراً عليه، وقد اخبرنا ان صحفياً يعمل في برافدا لينينغراد – وما يزال يواصل عمله فيها – قد بلغ الرابعة والستين من عمره وهو موفور النشاط.

وللصحفيين اتحاد يضمهم ولا يقبل في عضويته إلا من بلغ مستوى محدداً لديهم، فليس كل صحفي يقبل في عضويته لمجرد انه صحفي.

ومن الامتيازات التي منحت لهم، أن لهم مصحات خاصة للعلاج وكذلك لهم دور لقضاء فترة النقاهة بعد إتمام مرحلة العلاج.

ومن تقاليد صحيفة برافدا لينينغراد، انها تمنح مكافأة مادية سخية لصاحب احسن موضوع نشر في اعداد الأسبوع المنصرم، وبالمناسبة فان كل مقال تنشره الجريدة لغير محرريها يمنح كاتبه مكافأة مادية.. والكتّاب في السودان وأكثر البلاد العربية –كما نعرف– متبرعون بحمد الله، بل انهم مع تبرعهم يلحّون في نشر انتاجهم، وهذا النشر هو المكافأة الوحيدة التي يطمعون فيها.

لقد قضينا وقتاً طيباً مع محرر برافدا لينينغراد، الـــتي تعتبر الصحيفة الاولى في تلك المنطقة، وغنيٌّ عن البيان أن هناك صحفـــاً أخرى يومية وأسبوعية، كما توجد بالمدينة مجلتان شهريتان للثقافة والأدب والفنون.

ومن البرافدا اتجهنا لزيارة مصنع للغزل يعمل فيه سبعة آلاف عامل ٨٠٪ منهم من الجنس اللطيف. انشىء منذ مائة وثمانين سنة ... لقد أزالت المرأة العاملة في الاتحاد السوفياتي خرافة الفارق في العمل بين المرأة والرجل!

واستقبلنا عند المدخل مدير المصنع ومساعدوه وكبير المهندسين واكرموا

وفادتنا ، وكانت مفاجأة سارة لنا عندما اخبرونا ان المصنع يستعمل اقطاناً يستوردها من السودان بجانب الاقطان الاخرى ، والمصنع يستهلك سنوياً عشرين الف طن من القطن ، منها ثلاثة آلاف من اقطان السودان .. وعرفنا ان هذا المصنع ينتج سنوياً ستمائة مليون (ملف خيط) بالألوان المختلفة .

كل شيء في المصنع يسير وفق تخطيط محدد وواضح فالمسئولون عنه يعرفون تماماً ـ بخطة موضوعة ـ ماذا ينتجون اليوم وغداً ، وبعد اسبوع ، ولشهر ، ولسنة ، ولمدى خمس سنوات قادمة .. وليس هناك ارتجال او تهاون في الانتاج !

والانتاج في كل الاتحاد السوفياتي وثيق الارتباط ببعضه ليكون منسقاً فلا يفيض اكثر من الطلب ولا يشح ، إنما يخضع لأرقام التسويق ، فمثلا الطلبات التي تقدم لهذا المصنع لشراء انتاجه، تقدم الى لجنة التخطيط المركزية في موسكو لتوزيع العمل على المصانع المماثلة ، ليكون الانتاج والتسويق مرتبطين ارتباطاً وثيقاً ، ولذا فإن أي مصنع خاضع في تقدير كميات انتاجه الى لجنة التخطيط المركزية في موسكو التي تتجمع لديها كل طلبات التسويق لمختلف انواع الانتاج في كل المصانع .

وقد قمنا بطواف عام على كل اقسام المصنع ، بدأناه بالقسم الذي يغزل قطن السودان وكأنما التقينا فيه بكائن حي من بلادنا عندما رأينا قطننا بين الآلات الدقيقة التي تديرها الايدي الناعمة .. ولكم أبهجنا منظر « بالات قطننا » ، متراصة امام المصنع ، كما أرسلت من بورتسودان .

وقد سررنا عندما قال لنا المختصون في المصنع ، انهم يعتبرون قطن السودان من أجود الاقطان ، وأنه يقع في المرتبة الثانية بعد قطن (الجيزه ٤٥) الذي يزرع في مصر .

وبعد طوافنا على اقسام المصنع عدنا الى قاعة للاجتماعات لنتحدث الى المسؤولين عن المصنع ، وكان اول ما سألنا عنه اجور العمال ، وكيف تقدر ؟

فعلمنا ان متوسط اجر العامل في هـذا المصنع مائة وعشرة من الروبلات (والروبل يعادل اربعين قرشاً عندنا) ولكن هناك من يبلغ اجره نحو مائة وثمانين روبلاً وقد يزيد ، وعمال الآلات تقدر اجورهم حسب مستوى الانتاج كما وكيفا، ويرتفع مرتب العامل كلما ارتفع مستواه الفني، وان أي تعديلات للأجور يقررها مجلس الادارة والنقابة معاً .

وهناك غـــير الاجور المحددة – والتي تتفاوت بتفاوت الكفاية الفنية ومستوى الانتاج – خدمات اجتماعية وصحية وثقافية عديدة ، يقدمها المصنع للعمال وأسرهم ، فهناك مسرح خاص تستقدم اليه الفرق الفنية المختلفة للترفيه عنهم ولديهم ناديهم الخاص ، ولهم فرقـــة مسرحية ، وهناك رحلات الترفيه والاستجمام التي يساهم المصنع بقدر ملحوظ في نفقاتها .

وأطفال العمال في المصنع – وقيل لنا ان عددهم يبلغ قرابة الالفي طفل– يقدم لهم المصنع رحلات ترفيهية سنوية يقوم بكل تكاليفها المادية ، وغـــير ذلك من الخدمات الصحية والاجتماعية والفنية .

مدير المصنع بدأ حياته العملية عامل غزل وأمضى في ذلك ثلاثين عاماً ، وكبير المهندسين كان عاملاً ، أمضى ٤٢ عاماً في هذا المصنع .

وبعد ان انهينا اسئلتنا ، ظننا انهم سيودعوننا لننصرف، ولكنهم فاجأونا بأن امطرونا سيلاً من الاسئلة العديدة عن السودان ، وظللنا نتناوب الإجابة عليهـا أنا ورفيقاي بابكر محمد علي وعمر الفاروق ، حـــتى جفت حلوقنا ، وبعد ان شفوا غليلهم من معرفة ما يشاؤن اطلقوا سراحنا .

ولست انسى قط وداعهم الحار الذي تأثرنا له تأثراً بالغاً ، وكيف أصروا على ان نحمل معنا هداياهم التذكارية من المصنع وكيف احاطوا بسيارتنا وهي تتحرك وهم يشيرون بكل ايديهم مودعين في مودة ونبل .

١٠

سمولني !...

ومَن ذا الذي يجهل هذا الاسم من الذين تتبعوا ثورة البلاشفة في روسيا ؟ انه اسم الدار التي اتخذها لينين مقراً لإدارة الثورة عندما أوشكت ان تبلغ غايتها في تشرين الاول (اكتوبر) عـام ١٩١٧ لتزيل حكم القياصرة العتيـد وتقيم على أنقاضه العهد الحالي الذي ينظر اليه العالم الرأسمالي في هلع وذعر .

لقد كانت بداية النهاية في قصر سمولني الذي كان لا بد من ان نزوره ونحن في مدينة لينغراد – اوبتروغراد – كما كانت تسمى في ذلك العهد ، وواضح ان التسمية الاولى كانت تنسب المدينة الى القيصر (بيتر) او بطرس الاكبر ، اما التسمية الجديدة التي انبعثت من الثورة التي قادها لينين ، فقد أبعدت اسم (بيتر) لتضع لينين مكانه .

وقصر سمولني كان في الاصل مدرسة بنات الارستقراط في هذه المدينة ، وكانت الثقافة الفرنسية تسود تلك المدرسة شيمة ارستقراط تلك الفترة .

ووقفت بنـا السيارات امام مبنى سمولني ، وتطلعت اليه قبل ان ادخله فرأيت امامي قصراً منيفاً عالي الذرى ، فهو يتكون من اربعـة طوابق ، ابيض اللون ، واسع الفنـاء الذي اخضرّت ارضه وتنوعت ازهاره ، وقـد



قصر سمولني

ارتفع عالياً عند المدخل تمثال ضخم للينين قـائد الثورة رافعاً يده كأنه يشير الى الجموع الثائرة التي انطلقت من هـذا المكان جنوداً وعمالاً وفلاحين لتنهي عهد القياصرة في روسيا .

ودلفنا داخلين من البـاب الرئيسي ، فذكرت مـا كنت أقرأه في كتاب الكاتب الامريكي صديق الثورة جون ريد (عشرة ايام هزت العالم) ، وقـد كان هـــذا الكاتب الامريكي من شهود الايام العشرة الاخيرة التي قضت فيها الثورة على عهد القيصر ، وقد تُرجم الكتاب للعربية .

عنـد مدخل سمولني الذي ندخله اليوم في سهولة ويسر كما دخله من قبلنا

ملايين الزوار ... كان الدخول في تلك الايام الثائرة امراً عسيراً ، والكاتب يروي كيف ان الحرس قد منع (تروتسكي) الرجل الثاني في الثورة بعد لينين من الدخول ، لأنه لا يحمل معه اجازة الدخول الى سمولني ... قال الكاتب الامريكي :

« كنت أقضي معظم الوقت تقريباً في سمولني ، وكان الوصول الى هناك قد بات عسيراً ، فقد كان يقف صفان من الحرس عند البوابات الخارجية ، اما مقابل المدخل الرئيسي فكان يقف صف انتظار طويل من الناس المنتظرين للحصول على اجازات الدخول ، وكان يسمح بالدخول الى سمولني لكل اربعة اشخاص دفعة واحدة بعد التحقق مسبقاً من هوية كل شخص ومعرفة المسألة التي جاء من اجلها ، وكانت اجازات الدخول تعطى ، ولكن نماذجها كانت تتبدل عدة مرات في اليوم، وذلك لأن الجواسيس كانوا يتحايلون دائماً للتسلل الى سمولني .

وفيما كنت ذات مرة قادماً الى سمولني رأيت امامي تروتسكي مع زوجته عند البوابة الخارجية ، وكان الخفير قد أوقفهما ، وكان تروتسكي يفتش في جيوبه عن اجازة الدخول دون جدوى !.. وأخيراً قال :

« لا يهم !.. انك تعرفني .. كنيتي تروتسكي » !

فأجاب الجندي بعناد :

– وأين اجازة الدخول ؟ لا تستطيع الدخول . الاسماء لا تعني شيئاً بالنسبة لي .

– ولكني رئيس سوفيات بتروغراد .

فأجاب الجندي :

– حسناً ، ما دمت شخصية في مثل هذه الاهمية ، فقد كان ينبغي ان تكون معك ولو وثيقة ما .

كان تروتسكي جد صبور ، فقال : دعني اقابل القائد .

فتردد الجندي وتمتم بأن لا مجال لإزعاج القائد مرضاة لكل قادم. ولكنه اخيراً دعـا صف ضابط بإشارة من رأسه ، فعرض عليه تروتسكي قضيته ، مكرراً قوله : كنيتي تروتسكي .

تروتسكي ؟.. قال صف الضابط هذا وهو يحك قذاله ، ثم دمدم قائلاً :

– سمعت هذا الاسم في مكان ما . حسناً لا بأس ، ادخل يا رفيق » !

تعمدت نقل هذا الحوار الطريف من ذلك الكتاب لأنه يعطينا صورة لما كان عليه حال هذا القصر في تلك الايام الرهيبة ، ونحن ندخله الآن مع عدد كبير من الزوار الذين يقصدونه كل يوم، فلا نطالب بجواز دخول ، ولا يغيب عنا انه الآن ليس متحفاً وطنياً فحسب ، بل هو ايضـاً مقر اجهزة الحزب الشيوعي ومقر المجلس السوفياتي للينغراد .

ودلفنا الى قصر سمولني الرائع والذي بين غرفه وردهاته ولدت اول دولة اشتراكية في القرن العشرين .

كان سمولني يعج بالزوار امثالنا ، رجالاً ونساء من مختلف الاعمار، ولكنا كنا وحـدنا الذين ننفرد بهذا اللون الاسود ، وكنت انفرد بارتـداء الزي السوداني ، والعمامة مكورة على الرأس ، مما جعل كثيراً من الزوار يتجهون إليّ اكثر مما يتجهون الى ما جاؤا من اجله ، وان كانوا جميعهم على قدر عظيم من الادب والاحترام،فلم اشعر بنظرة واحدة تنطوي على التحقير او الانتقاص، ويخيل إليّ انهم جميعاً ودّوا لو التفوا حولي يسألونني عن كثير ممـا اوحى به اليهم لوني وما ألبس ، لولا ادبهم وحياؤهم .

وقادنا مرافقونا الى قاعـة واسعة ، رصّت عليها كراسي جلوس فخمـة كثيرة العدد ، في صفوف متراصة، اشبه ما يكون بقاعات المحاضرات الواسعة في الجامعات ، وقالوا لنا : في هذه القاعة التاريخية ، وعلى نفس هذه المقاعد

كان يجلس ممثلو الشعب الثائر من عمال وجنود وفلاحين ومثقفين،عندما اعلن لينين انتصار الثورة والاستيلاء على الحكم وتأسيس الدولة الاشتراكية، وقالوا: ان هذه القاعة بما فيها لم يحدث فيها ادنى تغيير منذ اعلان انتصار الثورة وتأسيس الدولة الاشتراكية ، لقد ابقوها كما هي منذ عام ١٩١٧ ، وفي نفس هذا المكان تكوّنت الحكومة السوفياتية الاولى برئاسة لينين .

وأخذت اجيل الطرف في هذه القاعة الجميلة الواسعة ، فمن سقفها تدلت العديد من الثريات الكهربائية الكبيرة ، وترتكز القاعة على ١٦ عموداً من المرمر الابيض ، ويبلغ طولها نحو الخمسين متراً وعرضها نحو الاربعين متراً ، لونها ابيض ناصع ، كذلك الجدران والسقف وأعمدة المرمر الفخمة .

وعلى طول الجدار الغربي من هذه القاعة ، كتب بماء الذهب ، الدستور السوفياتي الاول كما اعلنه لينين في هذه القاعة ، وقد كتبت هذه اللوحات الذهبية التي عليها الدستور السوفياتي الاول في عام ١٩٢٠ .

قال مرافقونا : في هذا القصر التاريخي موضعان سنحافظ عليهما ابداً ، ولن ينالهما تغيير او تبديل وهما :

١ – هذه القاعة التي شهدت مولد الحكومة السوفياتية الاولى ونهاية عهد الطغيان والاقطاع .

٢ – الحجرات التي عاش فيها لينين وزوجته عندما كانا هنا يديران الثورة .

ولقد شهدنا القاعة ووقفنا عندها ، ونحن في طريقنا لنرى الحجرات التي عاش فيها لينين وزوجته ، والتي تُركت ايضاً كما هي ، وعليها نفس الاثاثات التي كانت بها من قبل ، ولهذا حديث آخر .

لقد بهرتنا هذه القاعة، وقد أضفى عليها التاريخ – تاريخ الثورة – الذي

ارتبط بها ارتباطاً وثيقاً أثراً خاصاً ينطبع في نفس الزوار الذين يستشعرون في مثل هذه الامكنة جلال التاريخ وروعته او رهبته .

أعود لألتقط شذرات مما كتب (جون ريد) عن هذه اللحظة التاريخية في هذا المكان صبيحة انتصار الثورة واعلان العهد الجديد ، قال :

« في الصباح الباكر ذهبت الى سمولني، وفيما كنت اجتاح الرصيف الخشبي الطويل لاحظت النديف الاول من الثلج يتساقط من السماء الرمادية، وقد صاح الخفير الواقف عند الباب ، وهو يبتسم بمرح: « الثلج عظيم ! » ، وفي الداخل كانت الممرات الطويلة المظلمة والقاعات الباردة تبدو مقفرة ، ولكن اصواتاً غريبة خافتة وصلت إذ ذاك الى سمعي ، فرحت اتلفت ، كان ثمة اناس نائمين فوق الارض على امتداد الجدران ، اناس شعث الشعور غير مغتسلين ، عمال وجنود متلطخون وملوثون بالوحل ، مستلقون فرادى وجماعات غارقون في نوم ثقيل ، غير مبالين بشيء ، وكان على اجسام الكثيرين منهم ضمادات ممزقة دامية ، والى جانبهم بنادق وأحزمة الرصاص مطروحة على الارض ، كان ذلك هو جيش البروليتاريا المظفر » .

خرجنا منهذه القاعة التاريخية نسير في ممر يبلغطوله نحو المائتي والعشرين من الامتار ، وقيل لنا ان لينين ورفاقه كانوا يمشون في هذا الممر الطويل ، وقد افضى بنا هذا الممر الطويل ذو السقف والجدران الناصعة البياض والخالي من الزخارف ، افضى بنا الى الغرفتين المتلاصقتين في نفس مبنى سمولني، اللتين كان يسكنهما لينين وزوجته ، وقد قضيا فيهما تسعين يوماً ، هي ايام الثورة والنصر وتأسيس الحكومة الجديدة، وكان لينين قبل هذه الايام التي عاشها في هاتين الغرفتين في قصر سمولني يعيش مشرداً متخفياً في عدة امكنة خوفاً من بطش القيصر والحكومة المؤقتة ، ولم يكن له مقر معلوم .

الغرفتان كانتا قبل سكنى لينين من غرف مطبخ المدرسة ، ودلفنا الى الغرفة الاولى التي كانت بمثابة غرفة استقبال ، ومكتب له ، وقد ابقي كل

شيء مما كان يستعمله لينين كما هو في نفس وضعه دون تبديل او تغيير. وأول ما يدهشك في هذه الغرفة ، البساطة المتناهية التي كانت طابع حياة هذا الرجل، تتجلى هذه البساطة في كل محتويات الغرفة فهي اقل بكثير من مستوى غرفة اي عامل عادي ممن شهدنا حياتهم الآن في الاتحاد السوفياتي .

في جانب من الغرفة (ترابيزة) عادية كان يكتب عليها وبجانبها كرسي عادي كان يجلس عليه للكتابة ، وعلى الترابيزة تلفون من ذلك العهد وقلم ونشافة ، وترابيزة اخرى صغيرة عليها مصباح كهربائي ، وفي جانب آخر (كنبة) متواضعة وكرسيان محشيا بالقطن .

ويتوسط الغرفة سريران عاديان على كل منهما (مرتبة) وملاءة من قماش قطني ، وهناك دولاب خشبي للملابس له (ضلفتان) .

وقد استهوتني بساطة المكان ، فتقدمت وجلست على مكتب لينين ، على نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه ليكتب ، لم استطع ان اقاوم رغبتي في ان اجلس حيث كان يجلس ، وتخيلته في هذا المكان منفرداً يدرس ويخطط وينفذ في بداية الثورة التي ربما كان لا يقدّر لها الكثيرون آنذاك هذا المدى من النجاح بعد مضي خمسين عاماً من مولدها هنا !

دخلنا بعد ذلك الى الغرفة الصغيرة الملاصقة لهذه ، كانت محتوياتها اكثر بساطة ، وكانت صغيرة الحجم الى حد ملفت ، ولم نطل عندها الوقوف، فقد عدنا الى صالة واسعة بعض الشيء في مقدمة الحجرتين وقد وضعت فيها بعض الوثائق التاريخية الهامة ، كانت هناك صورة زيتية ضخمة رائعة للينين أُخذت له ايام الثورة، وصورة اخرى تاريخية معبرة تمثل لينين في تلك القاعة التاريخية التي مرّ الحديث عنها ، يعلن تأسيس الحكومة الاشتراكية ، وأعضاء المجلس جلوس على مقاعد القاعة يستمعون اليه باهتمام واضح .

وفي الصالة عدد من جريدة (ازفستيا) وقد نُشر على صفحتها الاولى

المرسوم الاول الذي اصدرته حكومة لينين عن نزع الارض من الاقطاعيين وتوزيعها على الفلاحين .

ومن الوثائق التاريخية الموضوعة في ذلك المكان ، النداء الذي وجّهه لينين الى مسلمي روسيا يطلب فيه منهم الانضمام للثورة والمشاركة في الحكم ويؤكد لهم تأمين حرياتهم كاملة في ممارسة شعائرهم الدينية .

وهناك لوحة تذكارية ممتازة أُهديت من حكومة وشعب فنلندا ، كتبت عليها عبارات التقدير الفائق والاعتراف بالجميل والشكر العميق من فنلندا الى لينين، إذ في هذه الغرفة اصدر لينين قرار مجلس الوزراء الذي يحمل الاعتراف باستقلال فنلندا وذلك في عام ١٩١٧ ، وكانت فنلندا آنذاك تقع في دائرة نفوذ الحكومة المؤقتة في روسيا .

وقد وضعت حكومة فنلندا هذه اللوحة التي سجلت فيها اعترافها وتقديرها وشكرها في عام ١٩٥٩ ، وفي نفس القاعة التي اصدر فيها لينين ذلك القرار التاريخي الذي حقق لفنلندا حريتها واستقلالها .

وحدثونا ان لينين عندما كان في قصر سمولني هذا استطاع ان يضع نحو المائتي مؤلف ومقال وبحث عن تنظيم الحياة الجديدة لشعوب الاتحاد السوفياتي.

أخذت أسير بين ممرات وغرف سمولني وأتمثل تلك الجموع الثائرة من جنود وعمال وفلاحين تزخر بهم هذه الغرف والردهات وهم يواجهون قوات الحكومة المؤقتة التي احتشدت في هذه المدينة لقمع الثورة، والصراع الدموي العنيف يزداد حدة وضراماً لحظة بعد اخرى ... حتى تمّ النصر لجموع الشعب على جيش القيصر ، وزالت القيصرية العنيفة بكل ابهتها وعظمتها من الوجود ، وهرب ابناء القياصرة وأحفادهم من وطنهم ، وزاول الكثير منهم مهنا تعد حقيرة ومتواضعة بالنسبة لأبناء وأحفاد القياصرة سعياً وراء لقمة العيش ، لقد عادوا مثلهم مثل بقية الناس فلا قصور ولا ترف ولا بذخ على حساب طبقات الشعب الكادحة .

لقد ذهبنا من سمولني الى قصر الشتاء الامبراطوري ، فتبين لنا الفارق الشاسع بين حياة لينين في تينك الغرفتين الصغيرتين في سمولني وأثاثهما البسيط المتواضع ، وبين ذلك الترف الحضاري الذي يصعب وصفه والذي يغمر العائشين في قصر الشتاء القيصري ، ولهذا حديث سأقدمه فيما بعد .

كل شبر في سمولني كان يذكرنا بتلك الفترة الحاسمة التي كانت نهاية عهد وبداية عهد والتي أسهب كثير من الكتاب الذين عاصروها فيتسجيل احداثها.

في كتاب « أبناء العاصفة الثورية » المترجم للعربية ، يتحدث الكاتب الروسي « اناتولي لونانشارسكي » عن « سمولني في الليلة العظيمة » فيقول :

كان سمولني يسطع بالاضواء ، وجمهور من الشعب الهائج يغدو ويروح في جميع ممراته ، والحياة تنبجس في جميع ممراته ، ولكن في زاوية الممر العلوي هناك ، في أقصى اليمين غرفة خلفية ، اجتمعت اللجنة العسكرية الثورية باندفاع بشري كبير، وبعاصفة شديدة حقيقية ، ومع ذلك فإن بعض الفتيات المرهقات تماماً تغلبن ببطولة على الهجوم الهائل لاولئك الذين كانوا يأتون للاستفسارات والإرشادات من اجل الطلبات المختلفة والشكاوى .

لا استطيع ان اتذكر ذلك العمل المدهش دون اعجاب ، واعتبر ان نشاط اللجنة العسكرية الثورية في ايام تشرين الاول (اكتوبر) هو واحد من مظاهر الطاقة البشرية التي برهنت على أية احتياطات لها لا تنضب موجودة في القلب الثوري ، وعلى ما يستطيعه عندما يدعوه صوت الثورة المدوي .

بدأت جلسة المؤتمر الثاني للسوفيات مساء في قاعة سمولني البيضاء ، نفسية المجتمعين حافلة ومهيبة ، التهيج هائل ولكن دونما أي ذعر بغض النظر عن ان القتال يجري حول القصر الشتوي ، والأخبار التي تجيء باستمرار وهي مشحونة جداً بالقلق .

بأي عواصف غير منقطعة من التصفيق قوبل الخبر الذي انتظر طويلاً ،

وهو ان السلطة السوفياتية نفذت في النهاية الى القصر الشتوي ! وان الوزراء الرأسماليين اعتقلوا !

اضيف الى هـذه الخطوط السريعة ذكرياتي عن اول تعيين لمجلس مفوضي الشعب ، لقد جرى هذا في غرفة ما صغيرة من سمولني حيث كانت الكراسي مغطاة بالمعاطف والقبعات، وحيث تزاحم الجميع حول مائدة رديئة الاضاءة! لقد انتخبنا قادة روسيا الجديدة، لقد تراءى لي ان الانتخاب غالباً ما يكون عرضياً جداً ، لقد خفت كثيراً من عدم المطابقة الكبيرة جداً بـين المهمات الضخمة والافراد المنتخبين ، الذين عرفتهم جيـداً ، والذين تراءوا لي بـأنهم غير مهيئين بعد لهذا الاختصاص او ذاك !

نفر لينين مني بعدم ارتياح وفي نفس الوقت قال بابتسامة :

– اننا بحاجة الآن الى مسؤولين لجميع الوظائف ، وإذا ظهر أنهم غـير صالحين هناك سننظر بعد ، إذ نقدر على تبديلهم .

وكم كان هو على حق ، بعضهم قد بدلوهم طبعاً ، وبقي البعض الآخر في مكانه .. لقد اصيب الرأس بالدوران امام الآفاق الهائلة والمصاعب التي بدت وكأنهـا لا تقهر ، وبثبات روحي مدهش أمعن لينين النظر في تنفيذ المهمات وشرع بها ، كما يدير قائد سفينة مجرب دفة سفينة محيطية ضخمة » !

هذا الكاتب الروسي الذي عاش اللحظات الأولى لمولد الثورة فيهذا القصر التاريخي سمولني يصور لنا في هذه الكلمات التي اوجزت في نقلها كيف بـدأ العهد الجديد يسير اولى خطاه بعد النصر في تلك الليلة الحافلة التي انتهى فيها عهد الظلم للأبد . وتلك الايام تداولها بين الناس .

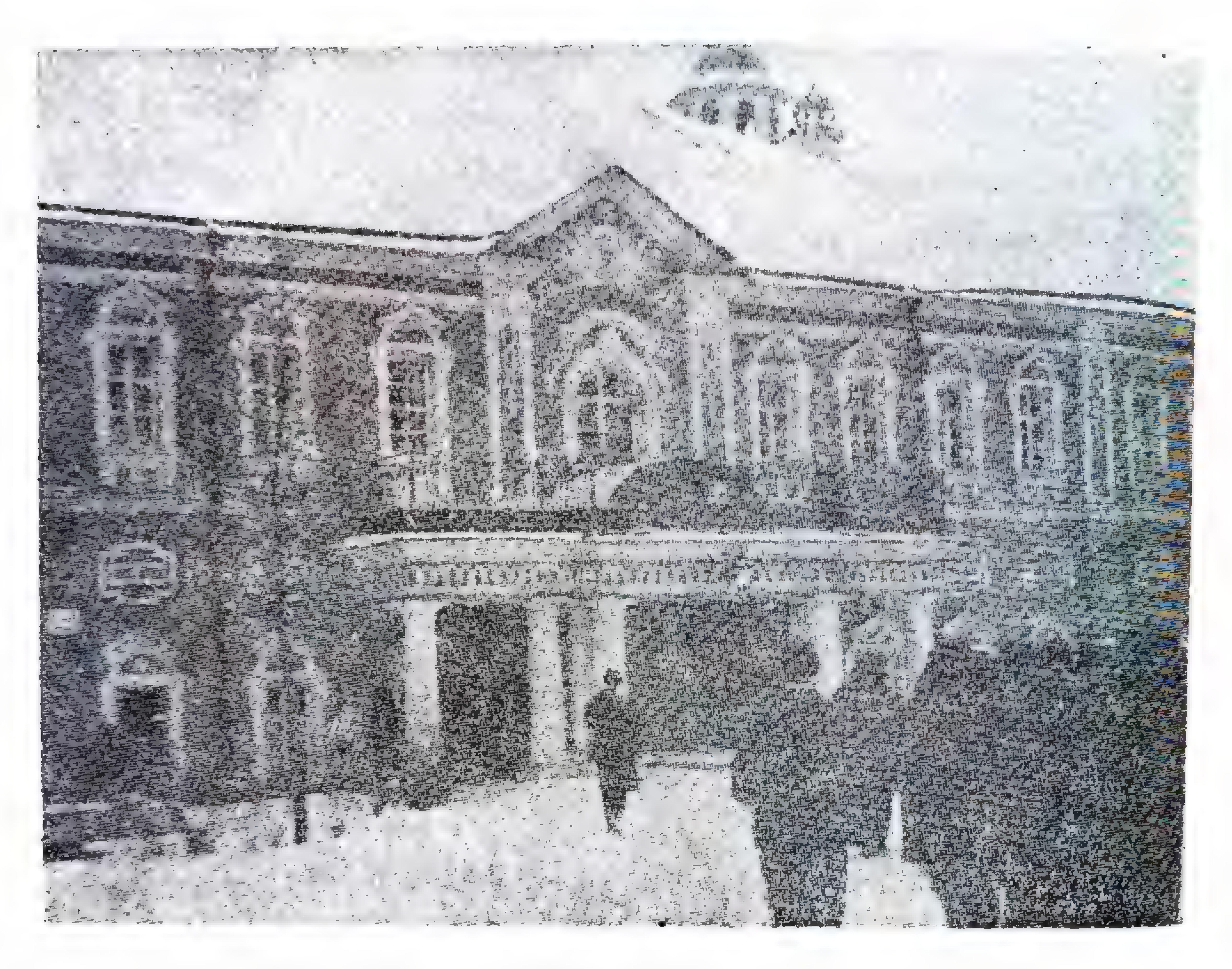
١١

قصر الشتاء حيث كان يعيش القياصرة

إن كان قصر سمولني الذي تحدثت عنه من قبل ، والذي كان مقراً للثوار بقيادة لينين ضد الحكومة المؤقتة ، إن كان هـذا القصر في غرفتيه الصغيرتين اللتين كان يسكنهما لينين خلال ايام المعركة، اراني الحياة البسيطة التي كان يحياها هذا الرجل الذي قاد اكبر ثورة عرفها التاريخ ، فقـد شهدت اليوم عجباً في القصر الشتوي الذي كان مقر القياصرة ، والذي اصبح متحفاً عامـاً يزوره يومياً نحو ١٧ الف زائر من الاتحاد السوفياتي وغيره، يقدر زواره في السنة بنحو ثلاثة ملايين نسمة .

والقصر الشتوي بتحفه النادرة، وفخامته وروعته التي يقل مثالها ، خليق بـأن تفد اليه هذه الملايين لتشهد هذه الروائع التي احتواها القصر ولترى اي ترف بالغ كان يعيش فيه القياصرة .

وقبل ان نلج القصر وقفنا امام ساحته التي شهدت المعارك الدموية القاسية بين جيش الحكومة المؤقتة مدافعاً عن هذا القصر الشامخ، وبين جيوش الشعب التي عبأها لينين وظلّ يديرها من قصر سمولني في الجانب الآخر من المدينـة لإنهاء عهد الظلم والطغيان .. وفي هـذه الساحة امام مبنى قصر الشتاء دارت المعارك الفاصلة حيث أسدل الستار نهائياً على عهد الحكم الاستبدادي في روسيا.



قصر الشتاء

وقفنا فترة في هذه الساحة التاريخية، نتطلع اليها والى واجهة قصر الشتاء التي تطلّ من أعلاها سلسلة من التماثيل الجميلة تمثل مجموعة من الأساطير اليونانية والايطالية القديمة ، هــذه التماثيل التي تراها في أعلى القصر تعلن اليك انك ستجد في داخل غرف قصر الشتاء أروع ما سجله الفنانون من رسامين ونحاتين في القرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر ممــا لا يمكن ان يجتمع مثله في موضع آخر في العالم ، ومن في العــالم آنذاك كانت له قدرات قياصرة روسيا لتمكنه من جمع هذه الثروات الفنية التي يصعب تقديرها ؟!

وفي هــذه الساحة التاريخية امام القصر عمود ضخم من الغرانيت قيل انه

يزن ستمائة طن ، وفي أعلاه تمثال كبير لملاك مجنح ، وجهة الاسكندر الاول الذي انتصر على نابليون ، وطول العمود الذي أعلاه التمثال لوجه الاسكندر في شكل ملاك ٤٧ متراً.. وقد اسلفت القول بأن العهد الحاضر قد أبقى على جميع تماثيل القياصرة حيث هي باعتبارها جزءاً من تاريخهم تجب المحافظة عليه دون ان يمس .

ودخلت وزميلاي بابكر محمد علي وعمر الفاروق الى القصر او (الارمتاج) كما يسمونه هناك ، وهي كلمة روسية اخبروني انها تعني « المكان الذي تجلس فيه بهدوء لتفكر » .

امـا انا فأشهد بأن الهدوء قـد فارقني منذ ان وطئت قدماي مدخل (الارمتاج) ، فان ما شهدته فيه يذهل العقل حقاً ، وخاصة اذا كان عقل انسان جاء من بلد جاف لم يشهد مثل هذه الألوان من الترف والجمال الفني الذي سجله مشاهير الفنانين عبر قرون طويلة ، وهذه الأبهة المتحلية في كل غرفة او ردهـة كان يغشاها القيصر ، فترى المرمر والذهب على السقوف والجدران والأعمدة حتى يخيل اليك ان الذهب جزء طبيعي من مواد البناء في كل جوانب القصر!.. وقد ظللنا نتلفت الى كل ناحية ونتطلع الى السقوف ونتأمل الجدران ، ففي كل ما ذكرت من روائع الفن وترف الصناعة ما يشدك اليها حتى يتعذر عليك ان تتجه الى سواه ، وكلما أمعنا في الطواف أهـدانا القصر روائع جديدة لا تخطر على البال .

وقد وقفنا ملياً نتطلع ذاهلين الى قاعة واسعة ، هي قاعة العرش الكبرى للقيصر ، طليت اعمدتها المرمرية وجدرانها وسقفها بالذهب وقد توسطها عرش القيصر المحلى بالذهب والأحجار الكريمة ، وقد تدلت حوله من السقف اكثر من عشرين نجفة بلورية رائعة ، طعمت بالذهب الخالص .

وقد لاحظت ان تاج القيصر قد وضع في مكانه شعار جمهوريات الاتحاد السوفياتي المعروف ، في اعلى العرش .

وخلف العرش الضخم، على جدار مذهّب، وضعت خريطة كبيرة لروسيا القيصرية ، صنعت من (المزايكو والأحجار الكريمة) فبدت تحفة رائعة لا يملّ الانسان من النظر اليها ، فقد صنعت كما قال مرافقونا من خمسة واربعين الف قطعة من المزايكو والأحجار الكريمة.. ألم أقل انه ترف فني لا مثيل له ؟.. هذا ما حوته خريطة واحدة في قاعة العرش، فكيف بتقدير ما حوته غرف قاعات القصر التي يبلغ عددها الفي غرفة وقاعة، تشغل مساحة ٩٤ ألف متر مربع ؟ وكيف في ان انقل لكم بعض ما تزخر به الغرف من الصور التي أبدع رسمها كبار فنّاني العصور الوسطى من مختلف أنحاء العالم وقد قيل لي انها تبلغ نحو ربع مليون صورة .

سأطوف بكم سريعاً على بعض الغرف التي استطعنا أن نلم بها ، ومن لنا بالوقت الذي يمكّننا من زيارة الفي غرفة ؟

فمن الروائع الفنية التي لا تنسى، بمجموعة الرسوم الرائعة حقاً لفنان ايطالي اسمه (سيموني مارتيني) من فناني القرن الرابع عشر ، وجدران القاعة كلها عليها طلاء ذهبي يزيد من روعتها ، ولهذا الفنان الايطالي صورة نادرة للعذراء أبدع فيها أيما إبداع ، ويقال ان نسخة اخرى واحدة منها توجد في امريكا ، ويعتبر هذا الفنان الايطالي من اعظم فناني القرن الرابع عشر .

وهناك قاعة واسعة ٦٠ متراً في ٣٥،تحتوي على مجموعة من لوحات الفنان المشهور (ليوناردو دافنش) ، وكلها لوحات دينية للمسيح والعذراء في اوضاع مختلفة ، كما ان سقف هذه القاعة عليه تسعة لوحات لنفس الفنان، ومن العسير ان اتحدث عن روائع هذا الفنان العالمي الشهرة ، فقد بهرتنا لوحاته وخلبت ألبابنا، والفن الممتاز يبهر ويخلب اللب حتى لو لم تكن ملماً بأصوله وقواعده.

وكما بهرنا وخلب ألبابنا (دافنش) ، فعل فِعل السحر في نفوسنا الفنان العالمي (روفائيل) وقد غطت روائعه عدة غرف وقاعات،وأكثرها مستوحاة من القصص الدينية ، وللعذراء والمسيح بوجه خاص ، في أطُر مذهبة كلها.

وهناك غرف وقاعات خصصت لعرض لوحات لفنانين يمثلون مدارس فنية مختلفة كمدرسة فينيسيا في ايطاليا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والمدرسة الاسبانية والهولندية والبلجيكية، في القرون الوسطى وهذا الذي ذكرت يمثل قطرة من بحر لجى ، فما بالمستطاع عرض ما ضمه الارمتاج من روائع الفنون .

وفي غرف وقاعـات اخرى ، تراصت ألوان من التماثيل للبشر والحيوانات والطيور، تحكي مختلف الاساطير او ترمز الى وقائع حربية معينة او الى احداث كان لها أثر في عهدها ، وكما ابدع الرسامون الى حد فائق ، ابدع المثالون فيما صنعوا أيما ابداع ، ومـا تركوا مادة يمكن ان تستغل في ابداعهم الفني إلا وقدموها باهرة رائعة .

وفي جانب آخر، متحف حربي يقدم لك صورة لكل الاسلحة التي استعملت منذ القدم حتى آخر ما وصلت اليه في القرن التاسع عشر ، وكثيراً مـا ترى بجانب هذه الاسلحة تماثيل لفوارس بكامل عدد الحرب في عهـد ما ، راجلين أو على صهوات الخيول، ودروع وخوذة، وأنواع من السيوف والفؤوس والمدي والحراب الخ... مما كان يستعمل في القرون الوسطى، بعضها يشبه كثيراً ما كان يستعمله فرسان السودان في القرن الماضي .

الأبهاء والغرف والقاعات ، تناثرت عليها المقاعد الفخمة المذهبة صنعت في عهد القياصرة يجلس عليها الزوار خلال طوافهم كلما أحسوا بالتعب .

وانـه لمن المحال ان تمر بكل هذه الغرف دون ان تحس بحاجتك للجلوس لفترة تستجم فيهـا ، ومهما ساعدتك قواك على الطواف فإنك لن تستطيع مشاهدة كل غرف القصر إلا في أيام طويلة ، ألم أقل انه يحتوي على ألفي غرفة وقاعة ، كل منها فاضت بروائع الفنانين والمثالين ومخلفات القياصرة .

وقـد فاتنا ان نرى الغرف التي ضمت هذه المخلفات من تيجان وجواهر وحلى نادرة .

كل ممرات القصر قد فرشت بالسجاد الفاخر وبعض أنواع الجوخ الثمين ، وقلّ ان تمر بجدار او عمود ليس عليـه طلاء ذهبي ، أو تختفي عنك التماثيل الجميلة المعبرة التي تزخر بها الممرات والغرف .

ولم تر إلا القليل من غرف قصر الشتاء ، وعند هبوطي من الدور الثالث وقفت مرة أخرى ملياً عند قاعة العرش حيث كان يجلس القيصر ، وعجبت للاقدار، أو كان القيصر وهو في أوج عظمته في هذه القاعة الفخمة انها ستصبح فيما بعد متحفاً يرده الناس من كل فج ، وأن افريقياً اسود اللون يرتدي الزي الغريب تطأ قدماه هذا المكان ويتجوّل فيه كما يشاء ؟

وذكرت في هذا المكان ذاك الراهب الساحر الذي قرأنا عنـــه كثيراً (راسبوتين) وكيف كان يسيطر بقواه الروحية على الامبراطور بطرس وزوجته بعد ان تولى علاج ابنهما الذي حار في علاجه كل أطباء ذلك العهد ، وشفي على يد (راسبوتين).. تخيلت ذلك الراهب الذي كانت حياته في هذا القصر اسطورة عجيبة، فمن قائل انه شيطان مريد وعربيد لم تسلم منه حسناء في هذا القصر الساحر ، ومن قائل انه ملاك مظلوم جنى عليه قربى القيصر وزوجته، وحسد رجال البلاط كما هو معروف في مثل هذه الاحوال حتى تآمروا عليه وقتلوه مسموماً .

لقد كان (راسبوتين) هنا يتنقل بين هذه الغرف والممرات، ملاكاً رحيماً او شيطاناً رجيماً... يبسط نفوذه الآسر على كل كائن مثلما كان هنا أمراء ونبلاء، يمثلون حاشية القياصرة، يتهافتون على ارضائهم ويتسابقون لتحقيق نزواتهم في تلك الليالي الحمراء الراقصة الماجنة، التي كان يعج بها القصر، وتتهادى فيها الحسان في ابهى الحلل والزينات، يتقلدن انفس الجواهر في بذخ بالغ، أولسن في حضرة القيصر؟

لقد ذهبوا جميعاً ، القياصرة و (راسبوتين) ومن كان في اكنافهم وبقي القصر متحفاً يدخله عامة الناس وخاصتهم ، دون رهبة او خشية ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء .

١٢

ماذا كان يجري هنا ؟

لا شيء يملأ نفسي خشية وانبهاراً مثل ان اقف على بقعة من الأرض جرت عليها احداث كبرى غيرت معالم التاريخ الرتيب ، وهاأنذا في الساحة الحمراء التي جرت عليهـا تلك الاحداث الضخمة التي ازالت حكم القياصرة العتيد ، وولدت على ساحاتها ثورة ذات مفاهيم جديدة لم يعهدها العالم من قبل، امامي يقف شاهقاً قصر الشتاء ، مقر القياصرة الذي كان لهم في هـذه الارض شأن وأي شأن ، وقد صار متحفاً شعبياً تطأه اقدام الملايين من ابناء اولئك الذين كان محرماً عليهم ولوج حجراته والسير بين ابهائه ، ولقد صار اليوم مباحـاً لهم ولكل من يدفع رسم الدخول الزهيد . وفي هذه الساحة (الساحة الحمراء) جرت الدماء بين انصار العهد الجديد - عهد الاشتراكيين — وبين حماة القديم انصار القيصر. ان الساحة الانيقة وما يحيط بها من شجر وزهر وأبنية لطيفة لا يبدو عليها الآن شيء من آثار تلك المعارك التاريخية، والناس يسيرون عليها زرافات ووحداناً ، راجلين وعلى السيارات والحافلات في خفـة واطمئنان ، ولا يطوف بأذهانهم مدى مـا لقيه من كانوا هنا في ثورة اكتوبر ١٩١٧ ، من مؤيدين ومعارضين ، كل ينزف دماً في سبيل النصر ! اني القي النظر وأرسله هنا وهناك مستعبراً ، وأرى بعين الخيال ضراوة المعركة والرجـال يسقطون

صرعى ، والدماء تغرق هذه الساحة التي تبدو لنـا جميلة زاهية لا يمل النظر من الاستمتاع بها .

صوت من بعيد ، كان هنا خلال ايام الثورة العصيبة ، يحدثنـا في صدق وأمانة عما كان يجري في هذه الساحة ، وفي هذه المدينة التي كان منها انطلاق ثورة لينين ، ونهاية عهد القياصرة .. صوت الاميركي (جون ريد) الذي آمن بالاشتراكية ، وعاش شيوعي الفكر والعقيدة ، وجعل من روسيا مقراً له ، ومات فيها متأثراً بمرض (التيفوس) وكرّمه قادة روسيا فدفنوا جثمانه عنـد سور الكرملين مع عظماء الاتحاد السوفياتي .

سجلت مذكراته عن اليوم الثاني والعشرين من شهر (تشرين الاول) اكتوبر والثورة محتدمة هنا :

« في الثكنات وأحياء العمال كان البلاشفة ينشرون شعارهم: « كل السلطة للسوفيات » في حين ان عملاء القوى السوداء كانوا يحرضون الشعب على تذبيح اليهود وأصحاب الحوانيت والزعماء الاشتراكيين » .

فمن جهة كانت الصحافة الملكية تحض على المذابح الداميـة ، ومن جهـة اخرى كان صوت لينين يدوي : « الى العصيان .. لم يعد يمكن الانتظار » .

حتى الصحافة البورجوازية اعتراها الارتباك، فقد كانت جريدة(بيرجيفي فيدوموس) اي (انباء البورصة) تنعت الدعاية البلشفية بأنهـا اعتداء على « مبادىء المجتمع الاساسية وعلى سلامـة الفرد واحترام الملكية الخاصة » ! وكانت صحيفة (ديين) المنشقة تقول : « ان الحكومة ملزمـة بالدفاع عن نفسها وعنا » . وكانت جريدة الوحدة « تلفت انتباه الحكومة الى ان عمال بتروغراد قد باتوا مسلحين وتطالب بالتدابير الحازمة ضد البلاشفة ».

وفي يوم ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) اصدر القائـــد العسكري الأعلى لبتروغراد والعقيد بولكوفنيكوف الأمر التـالي : « بالرغم من الايام الصعبة

التي تعانيها البلاد ، ما تزال تنشر في بتروغراد نداءات عديمة المسؤولية تدعو الى الأعمال المسلحة والى المذابح وفي الوقت نفسه تتزايد من يوم الى آخر اعمال السلب والتصرفات الفظيعة .

ان هذه الحالة تخل بحياة المواطنين وتعيق الهيئات الحكومية والاجتماعية عن ممارسة عملها المنتظم .

فإدراكاً مني لما من مسؤولية وواجب حيال الوطن آمر :

(١) يتوجب على كل وحدة عسكرية ، بمقتضى التعليمات الخاصة في حدود منطقة ترابطها – ان تقدم للهيئات البلدية والمفوضين والميليشيا كل ما تستطيع من المساعدة للمحافظة على المؤسسات الحكومية والاجتماعية .

(٢) ان تنظم دوريات بالاتفاق مع قيادة الناحية وممثل الميليشيا البلدية ، وأن تتخذ التدابير لاعتقال العناصر المجرمة والهاربين .

(٣) كل شخص يدخل الثكنات ويحض على الاعمال المسلحة والمذابح يعتقل ويساق الى مقر القيادة الثانية في المدينة .

(٤) لا يسمح بالمظاهرات في الشوارع والاجتماعات العامة والمواكب .

(٥) التظاهرات المسلحة والمذابح تقمع على الفور بواسطة جميع القوات المسلحة المتوفرة .

وفي مجلس الجمهورية صرح (كيرنسكي) ان الحكومة المؤقتة مطلعة كل الاطلاع على الدعاية البلشفية وأن لديها من القوة ما يكفي لمواجهة أية مظاهرات » !

هكذا يعطينا جون ريد صورة من التدابير التي اتخذتها الحكومة هنا وما كانت تستشعره من قوة وثقة لمواجهة الثورة المحتدمة .. ولكن الحقيقة التي تجلت فيما بعد ان الحكومة كانت اضعف بكثير من ان تقضي على الثورة ، فسقطت الحكومة ونجحت الثورة !

ويسير بنا جون ريد في يوم ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) الى سمولني مقر لينين ورفاقه الثوار ليطلعنا على مدى استعدادهم وثقتهم في النصر ، فيقول : « وفي ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) قمت بزيارة لتروتسكي ، بناء على موعد سابق ، في غرفة صغيرة جرداء من الاثاث في الطابق العلوي من سمولني ، كان جالساً على كرسي عادي خلف طاولة فارغة في وسط الغرفة ، وقد طرحت عليه قليلاً جداً من الاسئلة، فراح يتكلم سريعاً وبلهجة واثقة اكثر من ساعة، واني لأورد هنا فحوى ما قاله مستعملاً تعابيره نفسها :

« ان الحكومة الموقتة عاجزة تماماً . والبرجوازية تتولى السلطة ، إلا ان سلطتها مقنعة بائتلاف موهوم مع الاحزاب المؤيدة للحرب الدفاعية — وعلى مدى الثورة كلها ترى انتفاضة الفلاحين والذين كلّوا من انتظار الارض التي وعدوا بها ، وهذا الاستياء ذاته يستولي بجلاء على جميع الطبقات الكادحة في جميع انحاء البلاد . ان الجيش معنا، وقد خسر المساومون ودعاة المصالحة كل نفوذهم ، لأن الصراع بين الفلاحين والملاك العقاريين ، وبين العمال وأرباب العمل ، وبين الجنود والضباط ، قد بلغ درجة خارقة من الشدة انعدمت معها امكانية المصالحة ، وليس يمكن انجاز الثورة وانقاذ الشعب إلا بتركيز جهود الجماهير الشعبية .. إلا بانتصار ديكتاتورية البروليتاريا .. ان الثورة البرجوازية المضادة تنظم جميع قواها ولا تنتظر غير الساعة المواتية للهجوم ولسوف يكون ردنا حاسماً » .

المدينة تعيش في جو من التوتر والقلق .. الحكومة تحسب انها قادرة على السيطرة على الموقف وما هي بقادرة ، وقادة الثورة في مبنى (سمولني) يزداد موقفهم قوة لحظة بعد اخرى، وأنصارهم يتزايدون ، واجتماعاتهم تتوالى تشهد المزيد من التأييد والأنصار..وجاء النصر الموزر عندما اعلنت حامية بتروغراد عدم اعترافها بالحكومة ، وأكدت تأييدها لحكومة سوفيات بتروغراد ، التي كانت قد تكوّنت وأقامت لجنة عسكرية ثورية وكلت اليها ادارة المعركة .

يقول جون ريد: «في ٣٠ اكتوبر اتخذ اجتماع ممثلي جميع افواج بتروغراد القرار التالي :

« ان حامية بتروغراد لم تعد تعترف بالحكومة المؤقتة، ان حكومتنا هي سوفيات بتروغراد ، ولن نخضع إلا لأوامر سوفيات بتروغراد الصادرة من لجنته الثورية العسكرية » .

هذه الشوارع الممتدة امامي ، الحافلة بالحركة الدائبة ، كيف كان حالها وحال الناس عليها آنذاك ؟

يقول الكاتب : « وفي الشارع كانت تهب من الغرب رياح باردة رطبة ، والوحول الجليدية تنفذ من نعلي ، وكانت ثمة سريتان من (اليونكر) تسيران صعداً في شارع مورسكايا بخطوات متوازنة ، كانوا ينشدون اغنية عسكرية قديمة من العهد القيصري،وفي اول ملتقى الشوارع لاحظت ان رجال الميليشيا يعتلون ظهور الخيل ، يتمنطقون المسدسات في قرابات جديدة لماعة . وكان ثمة جمع صغير من الناس ينظر اليهم في صمت، كانت حافلات الترام تزحف على عهدها دائماً وقد تعلق بها من الخارج مدنيون وعسكريون،وعلى طول الارصفة كانت تقف صفوف من الهاربين من الجندية بألبستهم العسكرية يبيعون السكارات وبذور دوار الشمس .

وعلى طول شارع (نيفسكي) وسط الضباب الكثيف ، كانت جموع الشعب تتنازع الطبعات الاخيرة من الصحف ، او تتجمع على الاعلانات ، وتحاول ان تفهم النداءات والبيانات التي كانت ملصقة على جميع الجدران .. كانت هناك بيانات التسيك ، وسوفيات الفلاحين وأحزاب الاشتراكيين (المعتدلين) ولجان الجيش ، وجميعها تنذر العمال والجنود وتتضرع اليهم ان يلزموا بيوتهم وأن يساندوا الحكومة !

كانت المدينة في توتر عصبي ، ترهق مسامعها لدى كل ضجة حادة .. اسرعت الى سمولني ، كان ينعقد في الغرفة العاشرة من الطابق العلوي اجتماع

متواصل بدون انقطاع للجنة العسكرية الثورية ، وكان يتولى الرئاسة شاب متوهج الشعر في الثامنية عشر من عمره (!) كنيته لازيمير ، ولدى مروره بجانبي توقف وشد على يدي مصافحاً بشيء من الحياء، وقال لي بابتسامة بهجة :

« انضمت الينا قلعة بطرس وبولس ، تلقينا للتو اخباراً من فوج استدعته الحكومة الى بتروغراد لأعمال القمع » .

كان الجنود قد اخذوا يرتابون بأن وراء الاكمة ما وراءها، فأوقفوا القطار في غاتشينا وبعثوا بمندوبين الينا ، وقد سألونا :

– ما الامر ؟ ماذا تقولون لنا ؟ لقد اتخذنا قراراً بأن تكون « كل السلطة للسوفيات » . وقد اجابتهم اللجنة الثورية العسكرية : « نحييكم ايها الاخوان باسم الثورة ! الزموا اماكنكم وانتظروا الاوامر » .

وأبلغني قائلاً : « جميع خطوطنا الهاتفية مقطوعة، إلا ان رجال الهاتف العسكريين اقاموا خط ميدان للاتصال مع المصانع والثكنات » .

واستطرد (ريد) يقول :

« وبدون انقطاع كان يدخل الى الغرفة ويخرج منها رجال ارتباط مفوضون ، وكان يتولى المناوبة وراء الباب اثنا عشر متطوعاً ، مستعدين للانطلاق في اية لحظة الى ابعد قسم من المدينة » .

وقد قال احدهم بالفرنسية ، وهو رجل ذو وجه غجري يرتدي بزة ملازم : « الجميع مستعدون للعمل لدى اول اشارة » .

ومرّ امامي (بودفويسكي) وهو رجل مدني نحيل ذو لحية ، كانت تختمر في ذهنه خطط العمليات للعصيان ، و (انطونوف) الذي طال شعر لحيته ، واتسخت قبة قميصه وهو يترنح من النعاس نتيجة عدم النوم! و (كريلنكو) وهو جندي مربوع القامة عريض الوجه دائم الابتسامة ، نشيط الحركات في كلامه ، عنيف في خطابه ، و (ديبنكو) البحار الجسيم ذو اللحية والوجه

الهادىء ، هؤلاء كانوا رجـال هـذه المعركة في سبيل السلطة للسوفيات والمعارك المقبلة .

وفي مقر لجـان المعامل والمصانع ، في الطابق الارضي ، كان يجلس (سيراتوف) كان يوقّع على اوامر الى ادارة الترسانة الحكومية تقضي بتوزيع ١٥٠ بندقية على كل مصنع ، وكان يقف امامه اربعون مندوباً في صف انتظار .

وقـد التقيت في القاعة ببعض القادة البلاشفة من الوجوه غير البـارزة ، فأراني احدهم مسدساً وقال لي ، وقد كان شاحب الوجه : « لقـد حلّت البداية .. ان العدو ، سواء باشرنا العمل ام لا ، يدرك ان وقت القضاء علينا قد حان ، وإلا قضي عليه هو بالذات » .

كان سوفيات بتروغراد يجتمعون ليل نهـار بدون انقطاع ، وحين دخلت القاعة الكبرى كان تروتسكي يوشك ان ينهي كلمته وقد كان يقول :

« يسألوننا هل نعتزم القيام بعمل ؟ ان في وسعي اعطاء جواب واضح على هذا السؤال . ان سوفيات بتروغراد يدرك انـه قد حان اخيراً الوقت الذي ينبغي فيه انتقال السلطة كلها الى يـد السوفيات ، وهذا ما سيحققه مؤتمر عامة روسيا . أما ضرورة القيام بعمل مسلح فأمر يتعلق بأولئك الراغبين في احباط مؤتمر عامة روسيا . من الواضح لنا ان حكومتنا الممثلة بالشخصيات التي تؤلف الوزارة المؤقتة ، هي حكومة هزيلة عاجزة ، وهي لا تنتظر غير ضربة من مكنسة التاريخ لتخلي مكانها لسلطة شعبية حقاً ، ولكننا حتى الآن ، حتى اليوم ، نحاول تحاشي الاصطدام ، ونحن نأمل بأن مؤتمر السوفيات لعامة روسيا سيأخذ السلطة بيـده مستنداً الى الحرية المنظمة للشعب كله . ولكن اذا كانت الحكومة تريد ان تستغل مـا تبقى لها من الحياة – أل ٢٤ او أل ٤٨ او أل ٧٢ ساعة لتهاجمنا ، فلسوف نرد عليها الضربة بضربة ، ونفـل الحديد بالفولاذ » !

فيما كنت منصرفاً من سمولني في الساعة الثالثة صباحاً ، لاحظت ان ثمة رشاشات قد نصبت على جانبي المدخل ، وان البوابة والمنعطفات القريبة مخفورة بدوريات معززة من الجنود » .

كيف بدأت المعركة :

وينقل الكاتب إلينا صورة قلمية واقعة لبداية المعركة ، مبتدئاً من مشاهداته حول قصر الشتاء ، قصر الامبراطور، ثم يخترق الشوارع حتى يبلغ بنا مرة اخرى مقر الثوار في سمولني .

« وقفنا قليلاً قرب النافذة ننظر الى ساحة القصر – قصر الشتاء – حيث تصطف ثلاث سرايا من رجال اليونكر بمعاطفهم الرمادية الطويلة ، وكان يصدر اليهم الاوامر ضابط طويل القامة يبدو عليه النشاط، عرفت فيه كبير المفوضين العسكريين لدى الحكومة المؤقتة ، وبعد بضع دقائق تنكبت سريتان السلاح بجلبة واجتازت صفوفها المتاوجة الساحة ، موزونة الخطوات ومرتا تحت القوس الاحمر وغابتا عن الانظار ماضيتين باتجاه المدينة .. وسمع صوت يقول : « ذهبوا لاحتلال مراكز الهاتف » ! كان يقف بالقرب منا ثلاثة من اليونكر ، شرعنا نتحدث معهم ، وقد قالوا انهم في الاصل من الجنود ، وذكروا أسماؤهم ، وقد باتوا الآن غير راغبين في ان يكونوا ضباطاً لأن الضابط في اقصى درجة من انعدام الشعبية .

والظاهر انهم كانوا لا يعرفون ماذا ينبغي لهم ان يفعلوا ، وكان جلياً انهم على درجة كبيرة من عدم الارتياح .. ولكنهم اخذوا بعد قليل يتبجحون : « فليدس البلاشفة انوفهم فقط ، ولسوف نريهم كيف نحارب ! انهم لا يجسرون على مهاجمتنا فهم جبناء ! ولكن اذا ما تغلبوا علينا، فإن كل واحد منا يحتفظ بالرصاصة الاخيرة لنفسه » !

في تلك اللحظة بدأ تبادل اطلاق النار في مكان ليس ببعيد ، فإذا بجميع

الناس في الساحة يتشتتون ! وانبطح كثيرون على الارض . كان ثمة حوذيون واقفون في منعطفات الشوارع فانطلقوا بعجلاتهم في جميع الاتجاهـات .. وقامت جلبة رهيبة ! وراح الجنود يعدون مقبلين ومدبرين ، يحملون البنادق ويصيحون : « جاؤوا ! جاؤوا » !

وفي شارع نيفكس كان يبدو كأن المدينة كلهـا تتدفق هناك ، فلدى كل زاوية كانت تقف جموع ضخمة محيطة بأناس يتناقشون في حرارة . وفي نقاط تلاقي الشوارع تقف دوريات تتألف كل منها من اثني عشر جندياً يحملون بنادق مشرعة الحراب ، في حين يتوعدهم الشيوخ ذوو الوجوه الحمر ومعاطف الفراء الثمينة بتلويح قبضاتهم ، والنسوة الأنيقات يمطرونهم بالشتائم ! وكان الجنود يجيبون بكثير من الامتعاض ويبتسمون بارتباك !.. وفي الشارع كانت تسير مصفحات ما تزال مرئية عليها الأسماء القديمة : (أوليغ) ، (ريوريك)، (سفياتوسلاف) ، وهي جميعاً أسماء أمراء روس قدامى ، وقد كتبت فوقها بخط كبير احمر الأحرف الاولى لاسم (حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي) .

وحين وصلنا الى سمولني كانت واجهته الضخمة تشع بالأنوار ، ومن جميع الشوارع كان يتجه اليه الناس افواجاً افواجاً مسرعين وسط الظلام والعتمة والسيارات والدراجات النارية تروح وتجيء... كان الجو بارداً وكان ثمة نار عند البوابة الخارجية وعلى ضوئها قرأ الحراس ببطء بطاقات الاذن بالدخول التي كنا نحملها. وعلى جانبي المدخل أُقيمت الرشاشات وقد نزعت أغطيتها وتدلت احزمة ذخيرتها كالأفاعي . وكان ثمة مصفحات كبيرة مصفوفة تحت اشجار الحديقة والفناء ومحركاتها تهدر ، وكانت القاعات الرحبة الخاوية الضعيفة الاضاءة تدوي بخبط الأحذية الثقيلة والصيحات والكلام .. وكانت الحالة النفسية حازمة والسلالم كلها ملأى بالجموع .

وكان اجتماع سوفيات بتروغراد قد انتهى، فأوقفت (كامينيف) ، وهو

رجل غير طويل القامة ، سريع الحركات ، ذو وجه عريض ينم عن الحيوية ورأس يكاد يكون بغير رقبة ، وبدون اية مقدمات ترجم لي الى الفرنسية القرار المتخذ للتو :

« ان سوفيـات بتروغراد لنواب العمال والجنود يحيي الثورة المظفرة التي قامت بهـا بروليتاريا بتروغراد وحاميتها ، وينوّه السوفيات على الخصوص بما أبدته الجماهير من تلاحم وتنظيم وانضباط وإجماع تام على هذه الانتفاضة التي قلّ مثيلها من حيث عدم إراقة الدماء ، وقلّ مثيلها من حيث النجاح . وان السوفيات إذ يعبر عن ثقته الراسخة بأن حكومة العمال والفلاحين التي ستقيمها الثورة ، بوصفها حكومة سوفياتيـة ، والتي ستؤمن لبروليتاريا المدن المساندة من جانب كل الفلاحين الفقراء ، ستسير بحزم نحو الاشتراكية التي هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البلاد من بؤس منقطع النظير ومن أهوال الحرب .

« ان الحكومة الجديدة ، حكومة العمال والفـلاحين ، ستقترح في الحال صلحاً عادلاً ديموقراطياً على الشعوب المتحاربة .. وستلغي في الحال الملكيـة الكبيرة للارض وتسلم الارض للفلاحين ، وستقيم الرقابة العملية على الانتـاج وتوزيع المنتجات ، وستقيم رقابة شعبية عامة على البنوك مع تحويلها الى مؤسسة واحدة تابعة للدولة .

« ان سوفيات بتروغراد لنواب العمال والجنود يهيب بجميع العمال وجميع الفلاحين الى دعم ثورة العمال والفلاحين بدون تحفظ وبكل طاقاتهم ، ويعبر السوفيات عن ثقة بأن عمال المدن ، بالتحالف مع الفلاحين الفقراء ، سيبدون انضباطاً رفـــاقياً راسخاً ويؤمّنون النظام الثوري الصارم الذي لا غنى عنه لانتصار الاشتراكية » .

هذا هو اول بيان أصدرته الثورة عقب انتصارها .. ويقول الكاتب انه سأل كامينيف قائلاً :

ـ إذن فأنتم تعتقدون انكم ربحتم الجولة ؟!

فقال وقد رفع كتفيه :

– ما يزال هناك عمل هائل ينبغي القيام به .. كثير الى درجة رهيبة ! فالأمر ما يزال في بدايته .

وارتقى لينين المنبر، فاستقبل بالهتاف العاصف ، فتنبأ بالثورة الاشتراكية العالمية .

الليلة الاولى عقب النصر :

ولندع (جون ريد) فقد حدثنا بما فيه الكفاية ، ولنستمع الى (فلاديمير بونتش) الذي كان من قادة الثوار ومن قدامى اعضاء الحزب الشيوعي، يحدثنا عن لينين في ليلة النصر الاولى ، وقد قضاها في دار (فلاديمير) ، وقد سجل انطباعاته هذه في كتاب « ابناء العاصفة الثورية » قال :

« كان فلاديمير ايلتش – لينين – قلقاً جداً من بطء اعمال قادة جيشنا ، وبعد ان تم الاستيلاء على القصر الشتوي من قِبل الجنود البلاشفة الثوريين ، تنفس الصعداء اخيراً ، وحالاً أزال المكياج البسيط وظهر في اجتماع مجلس بتروغراد لنواب العمال والجنود محاطاً باصدقائه السياسيين القدامى وكان الاجتماع ينظر انتهاء الوقائع .

عاصفة من الشعور الانساني اجتاحت القاعة عندما ظهر لينين على المنصة ، افتتح الاجتماع ، ومن جديد تحايا .. هتافات وسرور .. هكذا سار ذلك الاجتماع التاريخي الشهير عاصفاً وملتهباً .

وأخيراً انهيت جميع القضايا ، وفي ساعة متأخرة من الليل تحركنا الى الشقة للمبيت عندي ، تناولنا العشاء كيفما اتفق ، وبعد العشاء اجتهدت لأن اقدم كل شيء من اجل راحة فلاديمير ايلتش الذي وإن كان مثاراً إلا انه على ما يظهر كان متعباً جداً ، وبصعوبة وفقنا لاستمالته ليشغل فراشي في غرفة كبيرة مستقلة، حيث كان تحت تصرفه طاولة للكتابة، وورق، وحبر ومكتبة.

استلقيت على الاريكة في الغرفـــة المجاورة وقررت ان انام فقط حالما يتأكد لي بالضبط بأن فلاديمير قد نام .. ولفرض إلا من التام احكمت اغلاق ابواب الدخول بجميع السلاسل والعقافات، وجعلت المسدسات جاهزة للمعركة ظاناً بأنهم يستطيعون الدخول عنوة ، وأن يعتقلوا او يقتلوا لينين ! انهـــا ليلتنا الاولى ، فقط كل شيء منتظر !

واحتياطاً للطوارىء كتبت حالاً على ورقة كل مـــا هو معروف لديّ من تلفونات الرفاق ، وسمولني ، ولجان العمال المنطقية ، والنقابات ، لكي لا أنسى من جراء السرعة !

أطفأ فلاديمير ايلتش النور عنده في الغرفة – لا شيء يسمع وأنا اصغي.. أينام ؟ بدأت أهوّم ، ووشيكاً عندما كان ينبغي ان انام ، فجأة تلألأ الضوء في الغرفة التي كان فيها فلاديمير ايلتش – اسمع، كيف انه نهض من على السرير دونمـــا ضوضاء تقريباً ، وبهدوء سد الباب عليّ متأكداً من انني (نائم) (وطبعاً لم أنم) .. وبخطوات هادئـــة على اطراف اصابع قدميه لكي لا يستيقظ احد ، اقترب من طاولة الكتابة وجلس اليها – فتح المحبرة وانغمس في العمل ، مرتباً اوراقاً ما .

كتب ، شطب ، قرأ ، اقتبس ، ثم كتب ، وفي النهاية يبدو انـــه اصبح يعيد الكتابة وبشكل نهائي ، لقـــد اشرق ، وأخذ يعبّر ، صباح اواخر خريف بتروغراد حينما اطفأ (فلاديمير ايلتش) الضوء واستلقى على الفراش ونام.

عندما كان ينبغي النهوض صباحاً، أخبرت مقدماً جميع من في البيت بأنه يجب ان يسود الهدوء حيث ان (فلاديمير) عمل طوال الليل ولا شك انـــه تعب للغاية، وفجأة، وحينما لم يكن احد قد انتظره ، ظهر من الغرفة مرتدياً ملابسه تماماً ، نشيطاً ، نضراً ، ذا حيوية ، مسروراً ومازحاً قال :

– أهنئكم بأول يوم للثورة الاشتراكية ...

وما كان على وجهه اي اثر للتعب ، كما لو كان اخذ قسطاً وافراً من النوم، وفي الحقيقة انه لم ينم سوى ساعتين وفي احسن الاحوال ثلاث ساعات بعد يوم عمل مرهق من عشرين ساعة .

عندما اجتمعنا جميعاً لنشرب الشاي وخرجت (ناديجدا قسطنطنيوفنا) زوجة لينين التي قضت الليلة عندنا، سحب (فلاديمير ايلتش) من جيبه اوراقاً اعيدت كتابتها بعناية وتلى علينا مرسومه الشهير « مرسوم الارض » ... وقال :

– هكذا لو تيسر لنا ان نعلنه وننشره على نطاق واسع الآن ، إذ ذاك دعهم يجربون ارجاعه للوراء ... ليست هناك اية سلطة تستطيع ان تنزع هذا المرسوم من الفلاحين وتعيد الارض الى الملاكين ، انه اهم مكسب لثورتنا في تشرين الاول (اوكتوبر) ، ان الثورة الزراعية ستكون اليوم بالذات تامة وموطدة ...

قررنا طبع المرسوم عن الارض حالاً في كتاب مستقل بما لا يقل عن خمسين الف نسخة وتوزيعه قبل كل شيء على الجنود العائدين الى الريف اذ سيصل المرسوم عن طريقهم بسرعة الى اوسع الجماهير ... كان هذا قد انجز بشكل رائع في الايام القريبة جداً .

وانطلقنا بعد قليل الى (سمولني) مشياً على الاقدام ، وبعد ذلك جلسنا في الترام ، (فلاديمير ايلتش) تهلل لدى رؤية النظام النموذجي في الشوارع.. وبنفاذ صبر انتظر (فلاديمير) الماء ، وبعد قبول المرسوم عن «السلم» من قبل المؤتمر الثاني لعموم روسيا ، تلى المرسوم عن الارض بوضوح خاص، وبإعجاب قبيل باجماع المؤتمر .

---

(١) كانت روسيا القياصرة تخوض الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ – ١٩١٩) ضد المانيا الامبراطور غليوم ، وقد قررت الثورة الاشتراكية الخروج من تلك الحرب اقراراً للسلام .

مرسوم الارض :

ومن حق (لينين) ان يبدي ابتهاجه بإقرار « مرسوم الارض » الذي سهر ليلة النصر الاولى في اعداده، فقد كان الفلاحون في روسيا مثلهم مثل زملائهم في كل بلد اقطاعي يملك الارض فيه حفنة من الناس، يعيشون في فقر وذل، وقد قـامت الثورة الاشتراكية من أجل تصحيح أوضاعهم ورد الحقوق اليهم .. فكان لا بد من إقرار هذا المرسوم كأول عمل تقوم بـه الثورة تأميناً لحيـاة الفلاحين في العهـد الجديد ، وتدعيماً لكيان الثورة بانضمام الفلاحين اليهـا وتأييدهم المطلق لها..وبقي مرسوم الارض – اول مرسوم للثورة – كما يلي :

١ – تلغى الملكية الكبيرة للارض على الفور بدون أي تعويض .

٢ – توضع الملكيات العقارية الكبيرة ، وكذلك جميع اراضي الاقطـاع وأراضي الاديرة والكنائس مع جميع موجوداتها الحية والميتة ومبانيها وتوابعها، تحت تصرف اللجان الزراعية في الاقضية، وسوفيات نواب الفلاحين في النواحي حتى انعقاد الجمعية التأسيسية .

٣ – كل اتلاف للممتلكات المصادرة التي هي منذ الآن ملك للشعب بأسره يعتبر جريمة خطيرة تقع تحت طائلة العقاب امام المحكمة الثورية ، وعلى سوفيات نواب الفلاحين في النواحي ان تتخذ جميع التدابير اللازمة للمحافظة على النظام الصارم عند مصادرة اراضي كبار الملاكين العقاريين، وتحديد مساحة الاراضي موضوع المصادرة وتعيينها بدقة ، ووضع قائمة مضبوطة بجميع الممتلكات المصادرة وتأمين الحماية الثورية الشديدة على جميع الاستثمارات الزراعية والمنشئات والماشية والمؤونة الخ .. التي تنقل للشعب .

٤ – لا تضار اراضي الفلاحين البسطاء والقوزاق البسطاء .

وبهذا المنشور فتح باب التطبيق الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي على مصراعيه

١٣

كيف تسلموا الحكم ؟

من الطريف ان اسجل هنا كيف كانت المقاومة عندما حاول ممثلو الثورة استلام السلطة من الحكام السابقين، إذ لم يكن الطريق امامهم ممهداً ، فكثير من الموظفين ، وبعض عمال المكاتب ، ما زالوا على الولاء للعهد السابق ، ولم يقدروا تماماً قوة الثورة التي آل اليها الحكم .

ومما يصور ذلك خير تصوير ما روته (الكسندرا كولونتاي) الدبلوماسية السوفياتية ، والتي اشتركت اشتراكاً نشيطاً في ثورة تشرين اول (اكتوبر) ، وشغلت بعد الثورة منصب « مفوضة الشعب للبر الحكومي » . وكيف تولت مهام هذا المنصب في تلك الظروف ، قالت :

« كان تشرين اول (اوكتوبر) عام ١٩١٧ معتماً وعاصفاً ، الريح تهز اعالي الاشجار في حديقة (سمولني) بممراتــــه المتشابكة العديدة ، وقاعاته الواسعة المضيئة الخاليــــة ، حيث جرى العمل المتوتر الذي لم يرَ العــــالم له مثيلاً قط .

مر يومان على انتقال السلطة الى ايدي السوفيات، وقد كان القصر الشتوي بأيدي العمال والجنود ، وحكومة (كيرنسكي) لم تعد قائمة « الحكومة

المؤقتة»الا ان كلا منا كان يعني أن هذا ليس سوى الدرجة الاولى فقط من السلم الشاق الذي يقود الى تحرر الشغيلة وبناء جمهورية عمالية جديدة لم يرها العالم .

كانت اللجنة المركزية لحزب البلاشفة قد اتخذت لها غرفة جانبية تحتوي على طاولة بسيطة في الوسط ، وجرائد على مساند الشبابيك ، وعدد من الكراسي . لا اذكر لم جئت آنذاك ؟ ولكن اذكر ان (لينين) لم يترك حتى فرصة لطرح سؤالي ، قرر حال رؤيته لي ، انه يجب عليّ ان اقوم بعمل ما اكثر اهمية مما عزمت على القيام به بنفسي . قال لي :

– سافري الآن للاستيلاء على وزارة البر الحكومي ، هذا ما يجب القيام به فوراً .

كان فلاديمير (ايلتش) هادئاً ، مسروراً ، مزح حول شيء ما ، وانهمك مع الآخرين حالاً...

لا اذكر لماذا سافرت وحيدة ، ولكنه انحفر في ذاكرتي فقط ذلك اليوم الرطب من تشرين الاول (اوكتوبر) عندما وصلت الى مدخل وزارة البر الحكومي في شارع (كازانسكايا)،فتح الباب بواب طويل القامة مهيب بلحية شائبة وبأشرطة زينت سترته الرسمية ، وتفحصني من الرأس الى القدم ا.. استفسرت :

– من عندكم موجود الآن من المسؤولين ؟

فأجاب الشيخ ذو الاشرطة مقاطعاً :

– ساعات المقابلة لطلب الالتماس قد انتهت .

– ان غرضي لا يتعلق ابداً بقضايا الناس . من عندكم هنا من الموظفين الكبار ؟

– قيل لك بلغة روسية ، مقابلة طالبات الالتماس من الساعة الواحدة حتى الثالثة والآن – انظري – الساعة الخامسة !

كل منا على رأيه، لا شيء يساعد — المقابلة انتهت، صدر امر بأن لا يسمح لأحد بالدخول ! أحاول الصعود بغض النظر عن المنع ، ولكن الشيخ العنيد يعترض الطريق امامي ، ولا يمكنني من التقدم خطوة واحدة !

هكذا عدت بـــلا شيء — سارعت الى الاجتماع ، والاجتماعات في تلك الايام كانت أهم شيء وقضية اساسية ، هنـــاك ، في زحام فقراء المدن والجنود كانت تحـــل مسألة ، تكون او لا تكون السلطة السوفياتية ، يحافظ عليها العمال والفلاحون في ثياب الجنود ، او تقوى عليهم البرجوازية .

في الصباح التالي رن صوت الجرس في الشقة التي اويت اليها بعد خروجي من سجن كيرنسكي، الجرس يلح، فتح الباب ، وإذا بفلاح في فروة وحذاء من الألياف له لحية يسأل :

— هل هنا مفوّض من الشعب كولنتاي ؟ يجب ان أراه ، عندي هنا رسالة قصيرة اليه من بلشفيهم الكبير ! من لينين .

انظر فعلاً الى قصاصة من الورق بخط فلاديمير ايلتش :

« اعطوه ما يستحقه من ثمن الحصان على حساب البر الحكومي » .

سرد الفلاح كل شيء بـــلا تسرع ، لقد كان هذا ايام القيصر ، قبل شباط الماضي ، استولى على حصانه بغرض الخدمات العسكرية ، وعدوه بدفع مكافأة عن الحصان « بما يرضي الله » ، إلا ان الوقت قـــد مضى ولا سمع ولا رائحة عن أية مكافأة — عندئذ توجه الفلاح الى بتروغراد ولازم أبواب جميع دوائر الحكومة دونما فائدة ، ارسلوه الى هنا وهناك ، من دائرة الى اخرى ، أنفق الفلاح ما عنده فأضاع الصبر » .

هنا سمع فجأة — أناس كهؤلاء البلاشفة — يعيدون كل ما أخذه القياصرة والملاكون العقاريون من العمال والفلاحين وما سلبوه من الشعب أيام الحرب — يجب استلام رسالة قصيرة فقط من البلشفي الكبير ، من ليذين ، هكذا وجد

الفلاح لينين في سمولني ، أنهضه في الفجر ، وحصل منـــه على رسالة قصيرة أظهرها لي ولكنه لم يسلمها ... قال :

– عندما استلم النقود عندها اسلم الورقة ، اما الآن فلتبق عندي كضمان.

ما العمل مع هذا الرجل وحصانه ؟ ان الوزارة ما تزال في أيدي موظفي الحكومة المؤقتة . كان ذلك الوقت عجيباً ، اصبحت السلطة بيد السوفيات – مجلس مفوضي الشعب – لكن المؤسسات كأنهـــا عربات ملقاة بمنحدر تتدحرج على قضبان سكة حديد الحكومة المؤقتة .

كيف يجب الاستيــلاء على الوزارة بالقوة ؟ سيهربون وستبقى من غــير موظفين !

قررنا بصورة اخرى : ندعو لاجتماع مندوبي نقــابة صغار المستخدمين ، والرئيس هو الميكانيكي ايفان يغوروف ، لكن النقابة خاصة ، فهي خليط من مهن مختلفة ، وفيها كل من يعمل في وظائف بسيطة، أي السعاة ، الممرضات، الوقادون ، كتّاب الحسابات ، النساخون ، الميكانيكيون ، العمال والعاملات في معمل الاوراق ، الحراس والممرضون .

نوقش الوضع – نوقش بفطنة – انتخبنا مجلساً ، وفي الصباح التالي ذهبنا للاستيلاء على الوزارة .

دخلنا ، البوّاب ذو الاشرطة لم يتعاطف مع البلاشفة ولم يحضر الاجتماع، وبعبوس سمح لنــا بالمرور ! نصعد الدرج وسيل بشري من الموظفين وكاتبات الطابعة والمحاسبين والرؤساء يجري للاقاتنــا .. يركضون ، ويسرعون ، ولا يرغبون في النظر الينا ، نحن صاعدون وهم نازلون! ابتدأ امتناع الموظفين عن العمل . بقي عدد قليل منهم فقط ، اعلنوا استعدادهم للعمل معنــا ، مع البلاشفة !

دخلنا في غرف الوزارة ومكاتبها ، كانت فارغة ، الآلات الكاتبة ملقاة،

الاوراق مبعثرة ، ملفات الصادرات والواردات مغلقة في الخزائن ، والمفاتيح لا توجد ، ولا توجد مفاتيح للصناديق ايضاً .

لدى مَن؟ كيف يمكن العمل بدون نقود؟ وزارة البر الحكومي، مؤسسة كهذه لا يمكن ان يتوقف العمل فيها : هنا ملاجىء ، وأصحاب عاهات من المحاربين ، وورشات انتاج ، اعضاء صناعية ، ومستشفيات ، ومصحات ، ومحلات خاصة للمجذومين، وبيت للتربية، ومعاهد للفتيات، وبيوت للعميان، مجال واسع للعمل ! من جميع الجهات يطلبون ويلحون ، والمفاتيح لا توجد ، إلا ان اكثرهم الحاحاً الفلاح الذي جاء برسالة من لينين .. كل صباح ، ما ان يطلع الفجر حتى يكون على الباب ويقول :

« ماذا بخصوص الدفع عن الحصان ؟ لقد كان جيداً جداً .. لو لم يكن قوي البنية ومتحملاً المشاق لما بذلت كل هذا الجهد في سبيل المكافأة عنه .

بعد يومين وجدت المفاتيح ، اول اعانة من صندوق التأمين الاجتماعي ، كانت الدفع عن الحصان الذي استولت عليه الحكومة القيصرية بالخداع والقوة من الفلاح ، والذي استلم عنه الفلاح الملحاح مكافأة كاملة بورقة من لينين .

صورة اخرى عن مقاومة تسليم السلطة للبلاشفة ، يقدمها ايضاً (جون ريد) وهو يتابع الاحداث هنا في هذه المدينة التاريخية ، فيقول :

« لم تعد الحكومة المؤقتة موجودة ، وفي الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) توقف الكهنة عن الصلاة من اجلها في جميع كنائس العاصمة » ، ولكن كما قال لينين نفسه : « ليس هذا سوى بداية الاستيلاء على السلطة » ، ان المعارضة قد جرّدت من السلاح ، إلا انها ما زالت تهيمن على حياة البلد الاقتصادية ، فقررت ان تخلق الفوضى مستعينة بكل عبقرية الروس للعمل التعاوني ! لتعرقل للسوفيات وتعطل عملها وتنزع الثقة منها .

كان اضراب موظفي الحكومة منظماً تنظيماً حسناً ، تموله المؤسسات

المصرفية والتجارية ، وكانت كل خطوة يقوم بها البلاشفة للاستيلاء على الجهاز الحكومي تلقى المقاومة .

ذهب تروتسكي الى وزارة الشؤون الخارجية ، فرفض الموظفون الاعتراف بـــه ! واعتصموا في مكاتبهم ، وعندما خلعت الابواب قدموا استقالاتهم ! وعندما طلب تروتسكي تسليمه مفاتيح المحفوظات لم يحصل عليها إلا بعـد ان جلب عمـالاً ليحطموا الأقفال . وعندها تبين ان نيراتوف – المساعد السابق لوزير الخارجية – قد اختفى حاملاً معه المعاهدات السرية .

وحاول شليبا بنيكوف – وزير العمل – ان يضع يده على وزارة العمل ، كان البرد قارساً ولم يجـــد احداً هناك ليشعل النار ، ومن مئات الموظفين الحاضرين لم يجد موظفاً واحداً ليدله على مكتب الوزير .

وجرت حوادث مماثلة في وزارات الزراعة والتموين والمالية ، فالموظفون الذين وجهت اليهم الانذارات للعودة الى اعمالهم ، فــان قسماً منهم لم يرد عليها ، والذين عادوا فقد عادوا فقط لممارسة التخريب ، ولمـا كان المثقفون معظمهم معادين للبلاشفة فقد كان مستحيلاً على الحكومة السوفياتية الحـاق موظفين جدد .

وظلت المصارف الخاصة مقفلة ابوابها بعناد، فاتحة ابوابها الخلفية للمضاربين ولدى دخول مفوضي البلاشفة هذه المصارف ، كان الموظفون يغادرنها مخبئين السجلات وناقلين معهم المال – لقد لجـأ جميع موظفي مصرف الدولة الى الاضراب ، باستثناء اولئك المسؤولين عـن الخزانة وعن سك النقود الذين رفضوا تلبية أي مطلب لسمولني في حين انهم كانوا يدفعون بصفة خاصة المبالغ الضخمة للجنة الانقاذ وللدوما (المجلس) البلدي .

وأتلف موظفو مكتب الاعتمادات العامـة جميع سجلاتهم ، ففقدت بذلك جميع الوثائق عن العلاقات المالية بين روسيا والبلدان الاجنبية !

أمـا لجان التموين ، والادارات المسؤولة عن المنافع العامة العائدة للبلدية فكانت متوقفة عن العمل ، او هي موضع تخريب ، ولمـا حاول البلاشفة مساعدة مؤسسات الخدمة العامة او ادارتها – تدفعهم الى ذلـك الحاجات الملحة لسكان المدن – اضرب الموظفون حالاً ، وأغرق (الدوما) – البلدية – روسيا بأسرها بالبرقيات عن « خرق البلاشفة لحرمة الحكم الذاتي البلدي » .

في مقر قيادات الاركان ، وفي مكاتب وزارتي الحربية والبحرية ، حيث وافق الموظفون القدماء على العمل ، كانت لجان الجيش والقيادة العليا تعرقل عمل السوفيات بكافة الوسائل الممكنة .. وكان كل قطار من قطارات الجنود التي تغـادر بتروغراد يشق طريقاً له بالقوة ، وكان من الضروري اعتقال موظفي سكك الحديد في كل مرة . لقد كانت سمولني عاجزة تماماً ، وكانت صحف بتروغراد تردد ان كافة المصانع ستتوقف عن العمل خلال ثلاثة اسابيع لعدم توفر المحروقات ، والغذاء الموجود في بتروغراد يكفيها لثلاثـة ايام ، والامدادات قد انقطعت .

في هذا الجو المضطرب، المشحون بالصعاب، بدأت اول حكومة اشتراكية تتسلم مسؤولياتها ، في هذه المدينة – لينغراد – التي شهدت هـذا الحدث التاريخي الذي أثر على مجرى الاحداث في كثير من انحاء العالم، وما زال يؤثر.

١٤

تبليس عاصمة جورجيا بلد المعمرين

حضورنا الحفل السنوي ليوم افريقيا :

ودّعنا لينينغراد بعد ان أمتعتنا بجمالها وروائع ثرواتها الفنية التي يزخر بها قصر الشتاء ... لينينغراد التي يسكنها ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة والتي وجدنا الشمس تغيب فيها بعد العاشرة مساء ، ولكم ذهبنا لمائدة العشاء في الساعة العاشرة مساء وشعاع الشمس الذهبي يتساقط على النوافذ الزجاجية !

وفي اليوم الحادي والثلاثين من شهر حزيران (يونيو) من كل عام تظل الشمس واضحة يوماً كاملاً لا تغيب فيه عن أعين الناس . ويجيء الكثيرون من مختلف الانحاء ليشهدوا هذه الظاهرة الطبيعية ، ويعيش اهل لينينغراد في هذا اليوم الساحر في غناء ورقص ومرح ، وفي غيره من الليالي والتي يسمونها بالليالي البيضاء .

ولينينغراد مدينة الفن والجمال ، جمال البشر وجمال الطبيعة ، حدثوني ان فيها اكثر من خمسين متحفاً ، اما التماثيل الرائعة واللوحات الفنية والحدائق والنافورات ، فهي امامك في كل مكان وفي اروع صورة .

لم يبق اي اثر من لينينغراد التي خاضت الحرب الكريهة ضد النازية والتي

كلفتها اكثر من مليون قتيل من ابنائها، وجعلت اكثر دورها اطلالاً ، عادت لينتغراد بفضل الجهود الضخمة مدينة رائعة في كل شيء ، لكم وددت لو طالت ايامنا بها ، ومن اين للضيف الغريب ان يحقق كل امانيه ؟

وأقلتنا الطائرة الى مقاطعة جورجيا لنرى صورة للحياة مغايرة لتلك التي شهدناها في موسكو وفي لينتغراد ، وان كانت لينتغراد قد اهدتنا حياة تشبه الحياة الاوربية ، فان (جورجيا) أهدتنا صوراً شرقية حافلة في كل شيء ، ولكم كنا في لهف لنرى (جورجيا) ، فلإسمها في مسامعنا ومشاعرنا سحر خاص ، ربما لأنها اقرب للمناخ الشرقي .

وفي الساعة الخامسة من مساء الاربعاء ٢٣ ايار (مايو) ١٩٦٨ ، هبطت بنـا الطائرة مطار مدينة (تبليس) عاصمة جورجيا ، واستقبلنا في المطار وفد الصداقة العربية ، استقبلنا في حرارة وإلفة كأننا نعرف بعضنا تعارفـاً شخصياً منذ عهد بعيد ، وكان هذا اول مظاهر الروح الشرقية الـتي تسود سكان منطقة جورجيا ، وتولوا عنا كل الاجراءات الجمركية ، ثم دعونا لنغادر المطارات على سياراتهم الى المدينة التي تقع بعيداً عنـه مسافة ثلاثة وعشرين كيلو متراً ، كان المطر يهطل رذاذاً والطقس رائعاً ، وشد ما بهرنا جمـال الطبيعة طوال الطريق، فقد كانت الاشجار المورقة والزهور المونقة على مدى البصر تحف بالطريق من جانبيه ، وكنت أتلفت مبهوراً ، وددت لو أبطأت السيارة كثيراً لأتملى هذا الجمال الطبيعي الفاتن..حتى بدت المدينة . وتذكرت عند رؤيتها ، لبنان ومدنها الساحرة عنـد جبالها الشاهقة ، فمدينة تبليس لا تقع على سهل منبسط ، وإنمـا بنيت على عدة مرتفعات كستها النضرة ، وسالت من تحتها ميـاه الانهار كأنما طوعت كرهاً لكي تتشقق حول مرتفعات هذه المدينة ، وتقف حولها جبال شماء هي ايضاً مأهولة بالسكان ، فذكرت ما قيل عن جورجيا وطيب مناخها وروعة مناظرها الطبيعية ، وأنها تنفرد بمعمرين تجاوزوا المائة بكثير ، ما زالوا يحتفظون بنشاطهم وحيوتهم .

قلت لمرافقي والسيارة تقطع بنا ذلك الطريق المونق من المطار الى المدينة ، وعيناي عالقتان بجبال تلوح من بعيد . قلت له : ليس عجباً اذن ما سمعناه عن بلادكم من انهـا تطول فيها الاعمار حتى تتجاوز المائة ، بعد ان رأيتها في هذا الجمـال الرائع . فتبسم راضياً ، ثم أشرت للجبال المأهولة وقلت : لعل معمريكم يقطنون هناك ؟ قال: نعم. قلت : وما سر هذه الظاهرة ؟ فضحك وروى لي قصة صحفي جاء من بلد آخر الى هذا المكان ليتقصى اسباب هـذه الظاهرة ، وفي ذهنه ان هؤلاء الناس لا بد من ان يكونوا على نمط من العيش غير مألوف لغيرهم، وأنهم لا يقتربون من الخمر، ويقتصدون في حياتهم الجنسية، وذهب الى دار احد المعمرين في الجبال، وقد تجاوز عمره المائة ، وأخذ يمطره بوابل من اسئلته ، ولما جاء ذكر اجتناب الخمر والنساء، ضحك المعمر وأجابه قائلاً : وكانت هناك جلبة وضوضاء تصدران من غرفة قريبة في الدار، قال: أستحسن ان تذهب الى تلك الغرفـة ، وأشار الى الغرفة التي تنبعث منهـا الضجة ، فهناك ستجد والدي سكراناً يتشاجر مع زوجته الثالثة !

وضحكت كثيراً ، فقد كانت هذه النكتة بمثابة الاجابة على اسئلة كنت على وشك إلقائها عليه عن اسلوب حياة هؤلاء المعمرين في جورجيا .

ودخلنا تبليس – العاصمة – التي تشبه لبنان لمن زار لبنان ، وأنزلنا في فندق يعدّ من احدث وأجمل فنادقها ، وسرني منه انه يطل على نهر (كورا) الذي يعدّ من اكبر الانهار في جورجيا ، والأنهر هنـا تذكرني دائماً بالنيل ، وما أغنى هذه المناطق بالأنهار ، وما أحسن استفادتهم منهـا ، ففي مقاطعة جورجيا اكثر من ١٢ نهراً كبيراً غـير الفريعات ، كلها استغلت للطاقات الكهربائية للتصنيـع والاضاءة والري الزراعي . وقد حدثوني انـه قد بدىء في استغلال طاقات هذه الانهر منذ عام ١٩٢١ وقد تضاعفت هذه الطاقات منذ ذلك العهد حتى الآن ثلاثمائة وخمسين مرة .

وتبليس تعتبر من اقدم المدن التاريخية في الاتحاد السوفياتي فقد احتفل في

عام ١٩٥٨ بمرور الف وخمسمائة سنة على المناداة بها عاصمة لجورجيا ، ويقدر عمر المدينة بنحو ٢٥٠٠ سنة – وكما نعلم فإن ستالين من ابناء جورجيا هـذه فقد ولد في مدينة (قوري) التي تقع غرب تبليس بمسافة تسعين كيلومتراً – وهناك من يقول انه بحكم انتمائه الى هـذه المقاطعة فقد خصها في عهد حكمه بإقامة عدد كبير من المصانع مما جعل كفتها في هذه الناحية ترجح عن كثير من جمهوريات الاتحاد السوفياتي .

لقد أخذنا المرافقون في طواف طويل حول المدينة الجميلة ، ذات التاريخ العريق ، ووقفنا ملياً عند تمثال اسطوري لرجـل ضخم يمتطي حيواناً يشبه الفرس ، ومـا هو بفرس ، والتمثال يرمز الى الاسطورة التي تروي عن اصل مدينة تبليس ، فقد قيل ان اميراً كان مولعاً بالصيد فصاد طائراً كبيراً وأرداه ، وسقط الطائر على نهر (كورا) الذي بنيت حوله المدينة فيما بعد ، وكانت هناك عيون ماء ساخنة ، فأخرج الطائر الذي سقط عليها « مغلياً » ، فأعجب الامير بالمكان ، وأغرته عيون الماء الساخنة ، فأمر ان تكون المدينة هي العاصمة ، وتخليداً لهذه الاسطورة عن بدء حياة تبليس اقيم هذا التمثال الضخم عند شط نهر كورا ، حيث سقط الطائر كما تقول الاسطورة .

ويبدو ان اهل تبليس لم يمر عليهم من قبل سودانيون في مثل أزيائنا فقد اخذوا يتجمعون حولنا ولا يخفون دهشتهم من مرآنا ، شبابـاً وشيوخاً وأطفالاً من الجنسين ، وقد تقدم بعضهم ليسألنا من أين نحن ، وتعب مرافقونا من نقـل طوفان اسئلتهم الينا وأجابتنا عليها ، ولولا اننا تعجلنا بالتحرك من ذلك المكان لازداد تجمهرهم إلى الحد الذي يعطل حركة مرور سياراتنا .

وفي ذلـك المكان اخطرنا مرافقونا ان المدينة ، وهي كما اسلفت عاصمة جمهورية جورجيا ستحتفل مساء الغد بيوم افريقيا وهو يوم اعتادت ان تحتفي بـه كل جمهوريات الاتحاد السوفياتي في كل عام تقديراً لنضال الافريقيين من اجل التحرر من الاستعمار . وقالوا اننا لمناسبة زيارتنا هـذه سنكون ضيوف

الشرف في حفل المدينة ، وطلبوا مني ان ألقي كلمة في هـذا الحفل ، ولقد كانت مفاجأة سارة للغاية، ان نشهد في عاصمة جورجيا احتفالاً رسمياً وشعبياً يقام باسم افريقيا ، القارة التي ننتمي اليها ، تمجيداً لنضال شعوبها من اجـل الحرية والعزّة والكرامة .

وفي عصر اليوم التالي اخذنا المرافقون الى القاعة الكبيرة الواسعة التي اقيم فيها الحفل الذي كان يرأسه السيد وزير خارجية جمهورية جورجيا، وما كدنا ندخل القاعـة انا وزميلاي بابكر محمد علي وعمر الفاروق حسن حتى دوت القاعة بالتصفيق الحاد المتواصل ووقف جميع الحاضرين يحيوننا بوصفنا من ابناء افريقيا في حرارة بالغة وحفاوة نادرة ، حتى جلسنا على المنصة الرئيسية على يمين الوزير مباشرة ولقد تأثرنا لهذا الاستقبال الحافل تأثراً شديداً حتى كادت الدموع تطفر من مآقينا .

وافتتح الحفل ، وتعاقب الخطباء يتحدثون عـــن افريقيا ، تاريخها ، والحركات التحريرية التي تسودها ، وألوان الاستعمار التي مـا زالت تعاني منها بعض بلاد افريقيا التي لم تتحرر بعد ، وكان المتحدثون اساتذة في الجامعات ، وكبار اعضاء النقابات المختلفة ، كلهم تحدثوا حديثاً سامياً ، وكان المحتشدون في تلك القاعة الواسعة من الجنسين شيباً وشباباً يستقبلون هـــذه الاحاديث بحماس واضح ينطق به هذا التصفيق المتواصل كلما استعرض المتحدثون نضال الاحرار الافريقيين من اجل حرية بلادهم .

وجاء دوري في ختام الكلمات ، وكان المترجم الروسي الحاذق يترجم ما أتحدث به للمستمعين جملة جملة ، مثلما كان يترجم لنا كلمات المتحدثين من ابناء جورجيا العظام ، ولا استطيع ان اصف كيف استقبلت عندما وقفت على المنصة لأتحدث ، فقد كان فرط تأثري ان يحبس الكلمات في حلقي لقـد كرموا في شخصي في تلك اللحظات كل ابناء افريقيا، ومن حق القارىء عليّ ان يعرف بعض ما قلت في ذلك الموقف ، لقد شكرتهم اولاً نيابة عن ابناء

افريقيا وقلت لهم اننا كنا نظن ان مناصرة حكومة الاتحاد السوفياتي للحريات ووقوفها بجانب كل شعب يناضل انما هي سياسة الحكومة وحدها تناور بها في المحيط الخارجي ، حتى جئنا بلادكم وعرفناكم عن كثب وشهدنا احتفالاتكم الشعبية التي تقيمونها سنوياً وفي كل الجمهوريات احتفاء بيوم افريقيا ، فأكد لنا هذا ان سياسة حكومتكم الخارجية في تأييد الشعوب المكافحة لنيل حريتها ومحاربة الاستعمار ، إنما هي سياسة تنبع من ارادة الشعب الحقيقية .

وقلت لهم ان الشعب السوداني عرف الاتحاد السوفياتي كصديق ومؤيد لحريته ، منذ ان خرجت مواكبنا تنادي بطرد المستعمر ، وذهب وفدنا الى مجلس الأمن يحتكم اليه امر اخراج المستعمر من ارضه ، فلم يجد نصيراً في ذلك المجلس إلا ممثل الاتحاد السوفياتي ، وكان رد الفعل الطبيعي أن خرج الالوف من أبناء الشعب السوداني في مظاهرات هادرة تهتف بسقوط الاستعمار وبحياة الاتحاد السوفياتي، على مرأى ومشهد من المستعمرين الانكليز الذين عملوا طوال فترة حكمهم على عزلنا عن العالم بوجه عام وعن روسيا بوجه خاص ، فحرّم حق قراءة ثقافتها على المتعلمين ، وكانت الكتب والصحف والنشرات التي تتحدث عن روسيا وتجربتها الاشتراكية محرّمة ويعامل مقتنيها معاملة المجرمين.

وأشدت ومجّدت موقفهم من القضية العربية ، وأثر هذا الموقف على كل عربي وكل مناصر للحريات في العالم ، وقلت ان هذا الموقف أكد مدى ايمان الشعب السوفياتي بالعدالة والحرية .

وتحدثت عن دور السودان في النضال العربي وبوصفه من القلاع الافريقية العربية ، وكيف بادرت جيوشه الى اتخاذ مواقعها بجانب أشقائهم في مصر دفاعاً عن الوطن العربي، وقد صفقوا طويلا وأنا أتحدث عن موقف السودان هذا.

ولا احب ان اطيل فأسهب في ذكر كل ما تحدثت به، وعن الحماس الذي قوبلت به كلماتي من المستمعين... وهتفت اخيراً بحياة افريقيا حرة ، وبحياة أنصار الحرية في كل أنحاء العالم وفي الاتحاد السوفياتي خاصة .

وعدت الى مكاني من المنصة ، وانتهى الحفل ، وأحاط بنا عدد كبير من شهود الحفل ، يحيُّوننا مرة اخرى ويبـدون عظيم اغتباطهم لحضورنا حفلهم بيوم افريقيا ، ولقـد كنا بحق اكثر منهم سعادة وغبطة بحضور ذلك الحفل الذي لمسنا فيه عن قرب صدق مشاعر هـذا الشعب العظيم نحو الشعوب التي ترزح تحت وطأة الاستعمار، وأكيد رغبتهم في مساندتها حتى تتحرر . وتأكد لنا بوضوح شدة كراهيتهم للاستعمار والمستعمرين .

لن ننسى قط ، انا وزميلاي ، يوم افريقيا في تبليس حيث شاءت لنـا الأقدار ان نحضره ، ونمثل بوجودنا فيه هذه القارة الضخمة التي مُنيت بكل ألوان الاستعمار ، حتى لم يبقَ شبر منها خاليـاً من نيره وذله واستعباده ، ثم أخذت تتحرك في عنف وتصارع الاستعمار وتصرعه في بلد بعـد الآخر حتى أوشك على الانحسار منها نهائياً ، لتخلص لبنيها .

كان ذلك الحفل في تبليس بداية لأيام ممتعة حقاً ، مفيدة جداً ، قضيناها في منطقة شرقية السمات ، انسانية الروح .

لن أنسى وزميلاي تلك الرحلة الممتعة حقـاً التي اعدوها لنـا على بحيرة تبليس عند طرف المدينة الساحرة ، وقد كان منظر البحيرة رائعاً والقوارب البخارية تشقها ، تحمل الشباب من الجنسين في مرح دافـق ، وبعضهم يسير الهوينى على جانبيها ، يستمتعون بجمال الطبيعة وسحرها ، وقـد أقلنا قارب بخاري ، وأخذ يشق عباب البحيرة التي حفت بها الخضرة والنضرة ، وقـد غطت اشجار الفاكهة ساحات واسعة حول البحيرة ، ولقـد ذهلت عندما عرفت من مرافقينا ان جورجيا تنتج من العنب وحـده خمسمائة نوع ، لكل منها مذاقه الخاص !

وأخبرونا ، ونحن نستمع في اعجاب مشوب بالذهول ، ان هذه البحيرة وما حولها من خضرة ونضرة ومراع للأبقار كانت قيد نواظرنا.. ان كل هذا لم يكن له وجود قط قبل ١٥ عاماً، بل كان المكان صحراء قاحلة! وسألناهم:

كيف أحلتم الصحراء الى جنات تتوسطها بحيرة ؟ فأشاروا الى نهر غير بعيد، طوّعوا ماءه الى هذا المكان فملأوا البحيرة وسقوا الارض وزرعوها . وأرونا جانباً من البحيرة يتدفق منه ماء النهر وهو يهدر ، ولكم يصنع العلم المعجزات .

وجورجيا احدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي وهي تتمتع بالحكم الذاتي ، ولها ، ككل جمهوريات الاتحاد السوفياتي ، برلمان منتخب ، ومجلس وزراء ، وميزانية منفصلة . ويمارس البرلمان والوزراء جميع سلطات الجمهورية ما عدا الجيش والسياسة الخارجية والتعليم العالي، فهذه تدار بالتفاهم وفي نطاق سياسة موحدة عن طريق الحكومة المركزية في موسكو .

والبرلمان في جمهورية جورجيا ، وكل الجمهوريات المماثلة ، هو الذي يختار رئيس مجلس الوزراء ونائبين له .

وقد اجتمعنا اكثر من مرة في تبليس عاصمة جورجيا بالسيد (أجل يقوشويلي) وزير خارجيتها ، وهو رجل في حدود الاربعين من عمره ، وقد يزيد قليلاً ، مرح ، لطيف المعشر ، يحب الكلام . وكثير ممن التقينا هناك يحبون الكلام ويطيلون فيه ، مثل الشرقيين تماماً ! وأقول ايضاً : ان اهل جورجيا بالذات كرماء الى الحد الذي يتضاءل بجانبه الكرم الشرقي المعروف . وهم يعزمون على الطعام ويلحّون في تناوله مهما بلغ بك الشبع !

وأذكر ان السيد وزير الخارجية دعانا للعشاء في آخر ليلة لنا في تبليس في مكان يقع فيه مبنى التلفزيون في ربوة عالية تشرف على المدينة من علٍ ، فبقينا على المائدة نحو الثلاث ساعات والطعام لا ينقطع ! والانخاب تتوالى وبين كل نخب ونخب ، بالفودكا او شراب التفاح، او ماء معدني مفيد ، يقف احدهم ويخطب مثنياً على احد الجالسين، او يحيي الضيوف ، او يشيد بصداقة شعب ، ثم يشرب الجميع النخب ، فاستمرار في الا كل الى برهة يسيرة ليقف شخص آخر ، وقد يكون قد وقف من قبل ، ليخطب ويحيي ، ثم يدعو الى

شرب النخب ، ثم الى الاكل ، وهكذا ! ولقد غمرونا بكرمهم الحاتمي ، ولو كان«حاتماً»حياً لتخلى لهم عن مكانه راضياً..وبثنائهم الجم وبتحياتهم التي لم ينقطع سيلها عقب كل نخب الى الشعب السوداني الكريم .

وها نحن نبلغكم فاشهدوا ! لقد احسسنا في جورجيا بوجه خاص بحرارة الشرق وكرمه الفياض وبالرغبة الشديدة في الحديث وإطالته..نسيت ان اقول وأنا اتحدث عن طعامهم وكثرته ان كبـاب الضان المشوي « بالسيخ » كما هو الحال عندنا ، هو طبق المائدة الرئيسي، ويؤتى باللحم المشوي بنفس «السيخ» وينزع عنه على الطبق امامك، وشواء آخر عجبنا له جداً، واستطيبناه، شواء « الجبنة » ، ولا تسألوني كيف تشوى « الجبنــة » المصنوعة من اللبن ! فأنا نفسي لا ادري ، ولكنها قدمت لنا هناك مراراً « شواء ساخناً » ، رفيقاي بابكر محمد علي وعمر الفاروق قد شاركاني فيها ...

قلت اننا جلسنا الى السيد وزير خارجية جورجيا اكثر من مرة ويحزنني جداً ان اعرف وأنا اعدّ هذا الكتاب انه قد فارق الحياة متأثراً بمرض القلب ، لكم حزنت لهذا الرجل الطيب الذي كان يبدو لنا في ذلك اللقاء موفور النشاط والصحة والمرح . وقــد جرى بيننا حديث طويل عن نظام الحكم في هذه الجمهوريات،وأول ما علمته منه ان دستور الاتحاد السوفياتي يمنح حق الانفصال لأية جمهورية تريد ذلك وفي اي وقت ، ولكن الارتباط الوثيق الذي يقوم بينها الآن ، وقد تشابكت مصالحها الاقتصادية والسياسية والدفاعية ، يجعل التفكير في الانفصال امراً مستحيلاً .

وبما ان الاتحاد السوفياتي يضم قوميات مختلفة جداً في لغاتها وتقاليدها وأسلوب العيش فيها ، فقد اعطيت كل بقعة تضم قومية او قوميات متجانسة حق قيام جمهورية خاصة بها، لها برلمانها وحكومتها وميزانيتها ، وما عدا ما اشرت اليه من قبل. هذا النظام قد حلّ كل مشاكل القوميات المختلفة، وأتاح لكل جمهورية ان ترعى شؤونها الداخلية كما تشاء وتصون تراثها الخاص بهـــا

لقد حدثونا ان الاتحاد السوفياتي يضم اكثر من المائة قومية مختلفة يتحدثون بنحو مائة وأربعين لغة !

وقالوا ، ان في سيبيريا بعض القوميات لا يتجاوز عدد المنتمين اليها ستمائة شخص يتحدثون بلغة خاصة بهم. لقد وجدت في جمهورية جورجيا والتي تضم ايضاً أكثرية من شعب الأرمن،أن هناك ثلاث لغات تستعمل رسمياً،وتدرس في كل المدارس وتصدر بها الصحف والكتب وهي لغة جورجيا الوطنية واللغة الروسية ولغة الأرمن ، وهناك ايضاً اقليات من الروس والازيرجانيين ، ويستعمل كل منهما لغة قومه ، ويدرّسون اطفالهم بها .

ويمكن حصر نسبة سكان كل قومية في جورجيا على النحو التالي :

٣ و٦٤٪ جورجيون و١١٪ ارمن و١ و١٠٪ روس و٨ و٣٪ ازيرجانيين وتعداد سكان الجمهورية كلها اربعة ملايين ونصف المليون وتبلغ مساحتها نحو ٦٩٧٠٠ ك م مربع .

وكل الأطفال في المرحلة التعليمية الاولى ومدتها خمس سنوات يدرسون بلغتهم القومية، وفي المرحلة الثانية ، وهي خمس سنوات ايضاً، يدرسون اللغة الروسية بجانب لغتهم القومية ، اما في كليات الجامعة في الجمهورية ، فتستعمل لغة اكثر القوميات عدداً والذين لا ينتمون لها اولا يعرفون لغتها تكون دراستهم باللغة الروسية التي يتعلمها كل أبناء الاتحاد السوفياتي في المرحلة التعليمية الثانية كما اسلفنا القول .

وفي جورجيا جامعتان و١٨ معهداً عالياً لمختلف العلوم والفنون والصناعات وتمتاز بأنها تزدهر فيها الصناعة والزراعة معاً،وقد حدثونا ان بها اكثر من الف مؤسسة صناعية ، وان الانتاج الصناعي قد تضاعف ٢٦ مرة عما كان عليه قبل الثورة !

ويجنى من مزارع الشاي فيها ٩٦٪ من كل ما يجنى منه في الاتحاد السوفياتي.

وقد اشتهرت جورجيا لطيب مناخها وجمال مصايفها على شاطىء البحر الاسود بأنها « جمهورية النقاهة » ويقصدها الآلاف سنوياً لتمضية عطلاتهم .. وقد تعددت فيها البحيرات الجميلة ، وخاصة في مناطق الجبال ، مما اكسبها روعة وسحراً ، وتعتبر بحيرة ريتسا من اجمل بحيرات جورجيا ويقصدوها من انحاء مختلفة ليستمتعوا بجمالها الجذاب ، اذ تحيط بها غابات كثيفة .

وتتبع جمهورية جورجيا ثلاث جمهوريات صغيرة لكل منها ايضاً برلمانها ومجلس وزرائها وميزانيتها المنفصلة ، اسم احدى هاتين الجمهوريتين جمهورية « أباظا » وعدد سكانها اربعمائة الف نسمة فقط ا وعاصمتها « ساخوي » التي تقع على شاطىء البحر الاسود وتعتبر من أجمل مصايف الاتحاد السوفياتي ولنا معها لقاء في هذه الجولة . و« أباظا » هو اسم الجمهورية التاريخي القديم ، اما اسمها الآن فهو « ابخازيا » .

وسكان جمهورية « أباظا » يقولون عنهم «الاباظية» لهم صلة وثيقة بالشرق العربي عامة وبمصر خاصة ولعل الاسرة الاباظية المعروفة في مصر تنحدر من هناك اصلاً ، فاكثرية سكان «أباظا» قبائل القوقاز القديمة ، وقيل ان بعضهم أُخذ بالقوة في القرن السابع عشر الى تركيا ، أُخذوا كمماليك . ثم انتقل بعضهم مع أسيادهم الأتراك الى مصر . ومعظم المماليك الذين أبادهم الخديوي محمد علي ترجع أصولهم الى هذه الجمهورية .

وأخبرني وزير خارجية جورجيا في حديثه التاريخي الممتع ، ان ابراهيم بك ومراد بك اللذين كانا يحكمان مصر لفترة في القرن الثامن عشر وهما من أشهر وأقوى المماليك في مصر ، قد أُخذا من اقليم جورجيا هذه ، وابراهيم بك ينتمي الى قرية تبعد نحو الاربعين كيلومتراً من تبليس ، وانه كان في الثانية عشر من عمره عندما أُخذ الى تركيا واسمه الاصلي « ابرام » ثم أسلم وأطلق على نفسه اسم «ابراهيم» .

اذن ، من هذه الجمهورية – جورجيا – استُجلِبَ المماليك الذين كان لهم

شأن وأي شأن في مصر ، فقد حكموها زهاء الخمسمائة سنة ، وامتـد حكمهم الى سوريا أيضاً . قال عنهم « ألان مورهيد » في كتابه النيل الازرق :

«لا يمكن ان يتصور الانسان مجموعة من الرجال أعجب من هؤلاء المماليك».

وقد سجل في كتابه هذا جانباً من تاريخهم في مصر حتى غزو نابليون لمصر ، ومما ذكره عنهم :

« ولفظة مملوك تعني الذكر من الرقيق ، الا انها كانت تطلق بنوع خاص على الرقيق الابيض ، غير ان مماليك مصر كانوا أرقاء بيضاً من نوع خاص ، إذ كانوا يُشترون كالاطفال من العوائل الفقيرة بجورجيـا والقوقاز ، ويرسلون الى مصر حيث يُنشأون تنشئة خاصة تحت رعاية أسيادهم « الذين هم أنفسهم قد ابتيعوا من قبل كرقيق وهم أطفال » ليحكموا بهم البلاد ويسيطروا عليهـا سيطرة طبقية » .

وحرفـــة المماليك الوحيدة هي الحرب وشن الغارات ولذلك فقد كانوا يدربون منذ نعومة أظافرهم على الفروسية وشؤون القتال .

وهؤلاء الرجـال – المماليك – الذين كانوا يعتبرون انفسهم فوق مستوى البشر ، وقـــد حرصوا فعلاً على ان يظهروا بمظهر يوحي بأنهم فوق مستوى البشر ، وأن يتصرفوا تصرف الرجال المثاليين، فالكثيرون منهم كانوا طويلي القامة ، وسيمي الطلعة لدرجة تلفت الانظار ، وفي نفس الوقت كان لباسهم يدعو للدهشة والعجب فقد كانوا يلبسون زياً يتكون من طاقية خضراء حولها عمامة صفراء ، ودرع من الزرد عليه عباءة طويـلة مثبتة عند الخاصرة بشال مطرّز ، ثم سراويل فضفاضة حمراء وقفاز من الجلد يكسو اليدين ، وحـذاء احمر محدودب عند مقدمته ، أمـــا جهاز الحرب للرجل منهم فعبارة عن طبنجتين اثنتين وصولجان وسيف طويل مقوس وحزمة من النشاب وغدارة انكليزية ، ولكل هـذه الاسلحة مقابض ونصال مرصعة بالفضة والنحاس في نماذج وأشكال غـــاية الروعة والجمال وخصوصاً اذا كانت موشاة بالاحجار الكريمة كما كان يحدث في كثير من الأحوال .

وهم عادة يصلون الى السلطة بحد السيف وإلا فبالرشوة والغدر . ورغم انحطاط مثلهم العليا فقد استطاعوا ان يمددوا من اجل حكمهم في مصر الى ما فوق الخمسمائة سنة عندما وصل نابليون بونابرت الى مصر ، فقد استكان المصريون الى هؤلاء السفاحين جيلاً بعد جيل .

ان المملوكين – مراد وابراهيم – اللذين ينتميان الى جورجيا هذه ، قد اصبحا الرجلين الاولين الحاكمين لمصر حتى غزاها نابليون ، وقد وصفهما بير كهاردت فقال :

« قام نوع من التحالف بين اثنين من هؤلاء البكوات المماليك في السنين الاخيرة ، وهما مراد وابراهيم ، كان نتيجته ان اصبحت السلطة الفعلية في يديهما – في سنة ١٧٩٨ كان ابراهيم بك – وهو رجل طويل القامة نحيف الجسم أقنى الأنف ، خسيساً في طبعه ومكاراً بغريزته ، قد بلغ الستين من عمره، وكنتيجة لتقدمه في السن فقد اخذت سطوة مراد تتفوق على سلطته – كان مراد رجلاً امياً ، لا يقرأ ولا يكتب ، كان في ذلك الوقت في نهاية العقد الخامس من عمره وكانت حياته سلسلة من النضال من اجل السلطة » .

ويحدثنا رواة التاريخ – ان مراد بك هو الذي قاد المعارك ضد نابليون ، وقد ظل يحارب ويتقهقر امام القوات الفرنسية التي تفوقه عدداً وعدة حتى بلغ اسوان .. ورغم هزائمه المتوالية إلا انه انزل بالفرنسيين خسائر جسيمة أوشكت ان تزعزع انتصاراتهم ، وقد اشادوا كثيراً بشجاعته . وقد استسلم لهم اخيراً بعد ان فقد اكثر جنوده .

أما الجمهورية الثانية في نطاق جمهورية جورجيا فهي جمهورية اجاريان وعاصمتها (باتومي) وعدد سكانها ثلثمائة وعشرون الف نسمة وبالطبع لها برلمانها ومجلس وزرائها وميزانيتها المنفصلة ولغتها القومية التي يدرس بها اطفالها في مدارسهم !

ويتبع جمهورية جورجيا ايضاً اقليم أوستيان الجنوبي ويسمونه (تسخنفالي) .

وسألت وزير خارجية جورجيا : « ما دامت السياسة الخارجية في يد الحكومة المركزية في موسكو،فلماذا يشغل هو منصب وزير خارجية جمهورية جورجيا ؟ وهل يمارس سياسة خارجية خاصة بجورجيا » ؟

فأجاب: « ان حكومة موسكو لا تنفرد برسم السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي ، بل هي تستدعي وزراء الخارجية في كل الجمهوريات لمناقشة هذه السياسة ورسمها، كما ان وزير خارجية كل جمهورية يكون في موسكو معوزير الخارجية للاتحاد السوفياتي عندما تكون هناك مشكلة خارجية تتعلق بمنطقته». وضرب لي مثلاً قريباً : منذ فترة قصيرة كان وزير خارجية الاتحاد السوفياتي يناقش احدى مشاكل الحدود مع تركيا، وبما ان هذه المشكلة تقع على حدود جمهورية جورجيا فكان لا بد من ان احضر بوصفي وزيراً لخارجية جورجيا ، وأشارك في هذه المباحثات . وسألته : هل يشترط في عضو البرلمان عندكم ان يكون عضواً في الحزب الشيوعي ؟ فأجاب مسرعاً : كلا .

ثم تحدث الى سيدة بجانبه تشغل منصباً رفيعاً – نائبة رئيس اللجنة العليا لجمهورية جورجيا – فجاءت بعدد من الكتيبات،فأخذ يقلب صفحات بعضها، ثم قال لي : ان ٣٨ ٪ من اعضاء المجلس الاعلى للاتحاد السوفياتي غير منتمين للحزب الشيوعي ، وان ٥٢ ٪ من عدد النواب في المجالس المحلية للاتحاد السوفياتي ليسوا أعضاء بالحزب الشيوعي ، وان مجال الترشيح لعضوية اي مجلس مفتوح لأعضاء الحزب ولغير اعضاء الحزب دون تمييز .

وبدا لي من خلال حديث الوزير دون ان يصرح او أسأل ان هؤلاء الذين يفوزون بعضوية المجالس وان كانوا غير اعضاء في الحزب الشيوعي إلا انهم بداهة ليسوا اعداء للحزب او معارضين له بالمعنى الذي نفهمه للمعارضة في بلد « ديمقراطي » ولكنهم ايضاً غير ملتزمين بعضوية الحزب الشيوعي .

وعرفت منه ايضاً ان لكل جمهورية دستوراً محلياً وان من حق اعضاء برلمان الجمهورية تعديل هذا الدستور ، وللاتحاد الاعلى في موسكو دستور عام

فيه قواعد اساسية لكل الجمهوريات ، وعلى كل جمهورية وهي تضع دستورها المحلي ، ان تراعي القواعد العامة في دستور الاتحاد الاعلى في موسكو، فمثلا : الاسس الاقتصادية والسياسية يجب ان تكون موحدة في دساتير كل الجمهوريات.

وفي حديث لي معه عن نواب برلمان الجمهورية وادائهم لواجبهم وطريقة محاسبتهم ان لم يؤد بعضهم واجبه النيابي كما ينبغي ، فعرفت منه ان للناخبين في الدائرة التي فاز فيها النائب حق اسقاط العضوية عنه فوراً متى حاد عن طريق العمل النيابي الصحيح ، وذلك بأن يعقد الناخبون في الدائرة التي فاز فيها اجتماعاً عاماً يحضره النائب للدفاع عن نفسه ، وممثلون للبرلمان وللمجلس الأعلى للجمهورية فاذا ما صوت اغلبية الناخبين بعزله عن عضوية البرلمان، حمل القرار الى رئيس البرلمان ، ويكون ملزماً بتنفيذه فوراً ولا يناقش داخل البرلمان، وترسل الوثائق المتعلقة بقرار الناخبين الى لجنة خاصة بالوثائق منبثقة من المجلس الاعلى للجمهورية في المقاطعة لتتأكد فقط من صحة الاجراءات التي اتخذت .

وسألت السيد وزير خارجية جورجيا ، عما اذا كان لهذا النائب الذي عزله الناخبون حق ترشيح نفسه مرة اخرى للبرلمان ؟ فأجاب : ليس هناك ما يمنع نظرياً من ان يعيد ترشيح نفسه ، ولكن عملياً وواقعياً فان مثل هذا النائب لا يعود لترشيح نفسه مرة اخرى .

١٥

مصيف ساخومي

ظننت ان تبليس عاصمة جورجيا التي اهدتها الطبيعة السخية أجمل مـــا عندها لن تشبهها بقعة اخرى في تلك الجمهورية حتى بلغنا (ساخومي) عاصمة جمهورية أباظا – الآن ابخازيا – التي تعتبر جزءاً متمماً لجورجيا ، والمصيف العالمي الذي يقصده اثرياء العالم من كل فج والذي يقبع عند شط البحر الاسود اقول حتى بلغنا هذا المكان الذي لا ادري كيف اصفه فسبحت الله صانع كل هذا الجمال !

وعندما قادنا الرفاق الى ربوة عالية نطل منها على كل المدينة وعلى البحر الاسود الذي استدارت حول شواطئة ، وقفت مذهولاً وعيناي تكاد لا تطرفان يشربان من هذا الجمال المتنوع ، في الشجر والزهر والوجوه والمـــاء الرقراق من الانهر ، والجياش في البحر الاسود .. لقد كنا في مستهل الصيف وقـــد امتلأ الشاطىء بالشباب من الجنسين « بالمايوهات » ، وفاض البحر بالزوارق التي تحمل الشباب ، وبعضهم يسبح على الماء جماعات جماعات ، وقد وضعت على البحر علامـــات التحذير التي يجب ألا يتجاوزها السابحون والسابحات ، ولقـــد أغرانا البحر ، وإن لم نسبح فيه ، ولكنا ركبنا قارباً بخارياً طاف بنا حول الشواطىء اولاً ، ثم اوغل في البحر حتى توهمته سيبحر بنا الى تركيا التي ترقد شواطئها على الجانب الآخر منه .

وفي البحر ، وقـاربنا البخاري يشقه مسرعاً ، أشار مرافقونا الى سفينة تسير بسرعة فائقة وقالوا انها تسير بالذرة ، وهي اول سفينة من هذا النوع ، وما احسن ان تسخر الذرة لمثل هذه الوسائل التي تجمل الحياة للانسان ، لقد كانت السفينة لفرط سرعتها كطائرة تندفع في المـاء مثل اندفاع الطائرة في طبقات الجو .

لقد كانت رحلتنا على ذلـك الزورق البخاري في مياه البحر الاسود من أمتع الرحلات، وضاعف من امتاعها، الشباب المرح الذي ملأ البحر وشواطئه وقـد استلقى بعضهم على الارض معرضاً جسده للشمس سعياً وراء اكتساب السمرة وتخلصاً من لونه الابيض ! وبـين السمر ايضاً من يبحث عن معجزة تمنحه بياض اللون .. وهكذا الانسان دائماً !.. وساخومي، من حيث مناظر المنازل أقرب ما تكون شبهاً بالخرطوم في امتدادها الجديد ، على انهـا تمتاز بوفرة الحدائق ، وخضرة الارض ونضرة الزهر ايـنما اتجهت – ولست انسى ونحن وقوفاً على ذلك المرتفع الجميل الملتف الحدائق الغزير الشجر، ان اقتربت مني فلاحة جاءت مع وفد من الفلاحين لقضاء ايام من العطلة على هذا المصيف العالمي ، وقد استهواها منظري الفريد، سواء من حيث اللون ام حيث اللبس الغريب ، فسألتني – والمترجم ينقل اليّ حديثها – عن موطني وأين يقع ؟ ، ولم تفهم شيئاً من إجابتي ! ومن أين لها ان تعلم ان هناك في العالم بلداً يسمى السودان! وأخذت تنظر اليّ ملياً لعلها تريد ان تتملى من شخصي من السودان الذي تسمع بـه لأول مرة ، ثم أجالت نظرها فيما حولها من جمال الطبيعة ، وقالت : أيوجد في بلدكم مثل هـذا ؟ وأشارت بيدها الى حيث الحدائق والزهر والشجر والماء المنساب رقيقاً بينها ، وكأنما تعني بهذا التساؤل ان هـذا الجمال الساحر لا يكون إلا في بلادها ، فأجبتها وأنا اتظاهر بالجـد : « بلدي في افريقيا حيث تجود الطبيعة بأجمل ما عندها من شجر ونبات » ! وأجزم انها لم تصدقني ! كان ذلك واضحاً على اسارير وجهها .

وفي جمهورية اباظا – او ابخازيا – هذه ، تحققت لنا احدى امنياتنا عند زيارتنا للاتحاد السوفياتي، ان نزور الفلاحين حيث يعيشون ويمارسون نشاطهم الزراعي . وهنا لا بد لي من ان اشيد بشاب ممتاز لقينا ورحب بنا باسم الجمهورية ، معتذراً بأن زيارتنا جاءت خلال عطلة الاسبوع حيث كان يجب ان يستقبلنا مجلس وزراء الجمهورية ، والشاب يشغل منصب نائب وزير الزراعة ، لعله في الثلاثين من عمره على الاكثر ، ينبض حيوية ودماثة خلق ، كرّس وقته كله لمرافقتنا ، ونسيت ان اقول ان وزير خارجية جورجيا اصر ايضاً على ان يرافقنا اثنان من كبار اعوانه احدهما السيد (شاطا) الذي يسرني ان اقول انه الآن بين ظهرانينا في الخرطوم يشغل منصب الملحق الثقافي ، وهو يتحدث اللغة العربية الفصحى ، وقد حدثنا ونحن في جورجيا عن نقله للخرطوم .

وذهبوا بنا الى مقر احدى الجمعيات الزراعية ، وحدثونا ونحن في الطريق ان الجمعية التي سنزورها تعد من انجح جمعيات المزارعين وأوفرها انتاجاً ، وهي تعمل اساساً في زراعة الشاي الذي تنتج جمهورية جورجيا منه ما يعادل ٩٥ ٪ من الشاي الذي تنتجه جمهوريات الاتحاد السوفياتي كلها .

وبعد مسيرة اكثر من مسافة ساعة بالسيارات كان الطريق خلالها يشق قرى الفلاحين ومزارعهم ، وهي قرى نظيفة حقاً ، والطرق خلالها معبدة ، وقد شهدنا بعض السيارات الخصوصية لبعض الفلاحين تقف امام منازلهم ، وبعضها منطلقاً يجوس الطرقات يحمل افراد الاسرة، بالطبع ليس لكل فلاح سيارة .. بعد هذه المسيرة بلغنا القرية التي تتمركز فيها مباني رئاسة الجمعية، واستقبلنا اعضاء مجلس ادارة الجمعية – وكلهم فلاحون – بحفاوة بالغة ، وقد أعدوا لنا برنامجاً مفيداً ، بدا بزيارتنا لجانب من مزرعة الشاي . وهناك حدثونا عن كل شيء يتعلق بزراعته ، وبالطبع كانت (الآلة) العنصر الاساسي في كل شيء ، وقد أرونا (مكنة) لها مقدرة فائقة في جني وريقات الشاي



مع الجمعية التعاونية في مزرعة الشاي

من اشجاره ، بلغ من هذه المقدرة انها تجني فقط ، وريقـات الشاي الصغيرة الحجم ، وهي الصالحة ، وتلفظ غير الصالحة ، وهي الكبيرة الحجم . وبعد ان طفنا قليلاً على جانب من المزرعة واستمعنا الى احاديثهم عن جودة الشاي الذي يزرعونه والذي يضاهي افخر انواعه في الهند والصين ، وان هذا النوع الممتـاز استنبتته دكتورة في الزراعة من الاتحاد السوفياتي في عـام ١٩٤٧ وما زالت تواليه بالتحسين بما يناسب الارض والمناخ حتى بلغ هـذا المستوى من الجودة .

ثم قادونا الى متحف صغير ، تأثرت وأنا ارى فيـه بعض صور الشبان والرجال من ابنـاء هذه القرية الذين قُتلوا وهم يصدون الزحف النازي عن ارضهم ، كما احتفظوا في هذا المتحف الصغير ببعض القطع الحربية التي غنموها من الالمان في تلك الحرب ، لشد ما يؤذي نفوسهم تذكـّر تلك الايام القاسية حتى ليوشك الدمع ان ينهمر من أعينهم تأثراً لمن فقدوا . ولهذا فان كراهية هؤلاء النـاس للحروب لا تدانيها كراهية لقسوة التجربة التي مرّت بهم في الحرب الاخيرة .

ومن المتحف انتقلنا الى قاعة واسعة خصصت لاجتماعاتهم ولالقاء المحاضرات وبها مسرح للتمثيل، ولعرض الأفلام ، وهنا اخذ بعض اعضاء الجمعية يتناوبون الحديث الينا عن اعمال الجمعية .. منهم عرفنا انها تأسست عام ١٩٣٧ وأن اعضاءها يبلغون ١٤٨٠، وعدد السكان ثلاثة آلاف وخمسمائة ، كلهم ينتفعون من الجمعية من شيوخ واطفال – وقد خصص هؤلاء اعانات ثابتة – نسيت ان اقول ان بين الاعضاء الذين كانوا معنـــا في ذلك الاجتماع بالقاعة عدداً من الفلاحات .. وحدثونا ان عائد الجمعية الصافي من زراعة الشاي في العام الماضي وهو مليونان وأربعمائة الف روبل (الروبل يعادل اربعين قرشاً تقريبـــاً) وكان متوسط العائد للفلاح الواحد في ذلك العام ٢٥٠٠ روبل غير المعاشات المخصصة للعجائز في القرية ، وقد كان هذا يعادل ٧٠٪ من الدخل العام . اما

الـ ٣٠٪ فقد خصصتها الجمعية للاحتياطي وللتطور الثقافي بين الفلاحين والصحة والخدمات الاجتماعية ومشترى آلات جديدة للمزرعة . وينتخب مجلس ادارة الجمعيـة كل سنتين مرة عن طريق الانتخاب العام في اجتماع يحضره كل اعضاء الجمعية، وللجمعية لائحة داخلية تحكم تصرفات المجلس وتحدد مسؤولياته .

وسألناهم عما إذا كانوا يدفعون من دخل الجمعية للحكومة ؟ فأجابوا انهم يدفعون ضريبة لاتتجاوز الواحد في المائة ، وأن البنك الزراعي هو الذي يموِّلهم. وسألناهم عن موقف البنك من جمعية قـــلّ انتاجها فلم تستطع الوفاء بالتزامها المادي؟ ان تحقيقاً سريعاً يجري للتعرف الى اسباب الفشل، فإن كان ناتجاً عن ظروف الطقس مثلاً ، فان الدولة تتولى سداد النقص ، اما اذا كان سوء الانتاج يعود الى سوء تصرفات مجلس الادارة فيصحح هذا الوضع ، وحدثونا ان الانتاج في المزرعة يخضع لتخطيط الدولة، وأنها تستولي عليه وتدفع الثمن المجزي ، واذا حدث وأنتجت الجمعية اكثر من القدر الذي خطط لها فإن الدولة تشتري هذا الانتاج الزائد بسعر أعلى، بهدف ايجاد حافز لرفع مستوى الانتاج – وبعد ان استمعنا الى الكثير من المعلومات ! أخذونا الى دار احد الاعضاء حيث اعدوا لنـــا غداء فاخراً دسماً يتوسطه شواء الدجاج وتخللته الانخاب و كلمات الفلاحين يرحبون بنا ولم يعد احد في حفل الغداء لم يخطب، بل هناك من خطب اكثر من مرة .

وقد ادهشني طعام الفلاحين بارتفاع مستواه، وقد قدموه لنا على طريقتهم الخاصة ، لقد كان دسماً وغنياً كما ذكرت .

وقـــد تأثرنا كثيراً لحفاوتهم بنا وضاعف من تأثرنا ان اجتمع شبابهم من الجنسين في العراء امام الدار التي كنا بهـــا يعزفون موسيقاهم القروية الحلوة النغمات ويصفقون ويرقصون ، وخرجنا اليهم بعـــد الغداء ، الذي ختمته بخطبة كنت متأثراً فيها بهذا اللقاء الحار فشكرت وودعت وأشدت بما شهدت وقد تأثر رئيس الجمعية من حديثي لهم عند الوداع فبكى من فرط تأثره .

وللجمعية مصنع ضخم طافوا بنا عليه وهو يقوم بكل عمليات اعـداد الشاي والتصدير منذ ان يجني حتى يعبأ داخل الصناديق ويجهز للارسال، وقد بنوا من مداخيلهم مدارس عديدة لأبنائهم وبناتهم .

وأمام الدار، وكيف انسى، ذلك الحشد من الشباب يعزف ويغني ويرقص رقصاً شعبياً احتفاء بنـــا ، واهتزت مشاعر زميلاي بابكر محمد علي وعمر الفاروق ولم يطيقا صبراً ، فانخرطا مع الشباب المرح يشاركونه الرقص وأي رقص ؟ أما بابكر فقد كان (يعرض) بعد ان يدخل على (العرضة) حركات مرتجلة ليكسبها حيوية اكثر . أمـا عمر الفاروق فقد الهم رقصة من الجنوب هي خليط من عدد من الرقصات ، فقد رفع يديه الى أعلى عموديتين ، وأخذ يفحص الارض برجليه فحصاً على نغمات الموسيقى .. وأشهد انهم ادخلوا على اولئك الفلاحين شيباً وشباباً قـدراً عظيماً من فورة المرح والانطلاق وصار الجو عائلياً صرفاً ، عميق المعاني الانسانية ، وددت لو كنت في عمر يسمح لي بالمشاركة إذن لابتدعت لهم رقصة تعجبهم .

ولا تسل كيف انقضت تلك السويعات العذاب ، وكيف تحسرنا ونحن نودعهم وهم يحيطون بسياراتنا كأنهم يودعون اسرة منهم ، وما أروع وأسمى العلاقـات عندما تكون انسانية خالصة .. فتحية من البعد لفلاحي منطقة ساخومي .. ولا لقاء إلا ان يشاء القدر .

١٦

العودة لموسكو

عدنا من جورجيا الى موسكو لنبقى فيها يومين قبل ان نغادرها نهائياً ، ولست أدري هل يتاح لي ان أعود الى هـذه البلاد مرة اخرى ، فهي خليقة بأن يعود اليها المرء اكثر من مرة لأنها قارة مترامية الاطراف، ودنيا متعددة الجوانب ، ليس من السهل ان يتعرف اليها الانسان كلها في زيارة عابرة .

وقد شاء مرافقونا ومنظموا رحلاتنا ان يقدموا لنا بعض الجوانب الترفيهية. فقد ذهبنا لمشاهدة ألعاب « السيرك الروسي » ، ودهشنا لما شهدنا في هـذا السيرك من مناظر مدهشة، واستعراضات بارعة. وأكثر ما دهشت له الألعاب التي قام بها دب روسي يرافقه احد الشبان : ظهر الدب والشاب ويجانب كل منهما عجل (بسكليت) ، وقفز الدب فوق العجل وكذلك الشاب ، وأخذا يدوران معاً حول حلبة المعرض في سرعة فائقة ، والدب يدير (بدال) العجل برجليه ، ويمسك عجلة القيادة بيديه ويدير بهـا (البسكليت) حول الحلبة مجارياً الشاب في سرعته !..

وفي المرة الثانية برز الدب والشاب ومع كل منهما (موتر) ، وهذه بالطبع عملية اكثر تعقيداً من سابقتها ، وجلس الدب على مقعـد الموتر وأدار محركه برجله ، مثلما فعل الشاب ، وأمسك الدب بعجلة قيادة الموتر بيديه ، وانطلقا

معاً في الحلبة متلاصقين لا يتقدم احدهما الآخر، وصوت الموترين يدوي دوياً! حتى اذا أكملا عدة دورات انطلقا معاً الى نفق طويل واختفيا فيه !.. ولم يشعر المشاهدون بأي خطأ في تصرفات الدب في كلا الحالتين ، إذ كان مثل الشاب تماماً وعياً وإدراكاً ، وهو يندفع بالبسكليت اولاً ثم بالموتر ثانياً !..

بعد هذا ذهبنا الى تلك التحفة الفنية الجديدة التي يسمونها (سينما راما) وقد حدثونا انها توجد في ثلاثة أماكن فقط من العالم كله ، وهي : نيويورك ، ولندن ، وموسكو ... بلاد الله المحظوظة !

ودخلنا الى غرفة اسطوانية واسعة، والناس وقوف في وسطها، فلا مقاعد ولا (لوجات) للمشاهدين ، وكنا في منتصف النهار ، ولكن ما كادت أنوار الغرفة تطفأ حتى اصبحنا في ظلام دامس ... ودار الفيلم السينمائي ، ووجدنا انفسنا كأننا نعيش في داخل احداث القصة ... ليست هناك (شاشة) تعرض عليها الاحداث كما هي الحال في السينما ، ولكن احداث القصة تجري من حولك على كل جدران الغرفة الاسطوانية، فهي تطوف حولك في شكل بارز مجسد، تدور امامك ومن حولك ومن خلفك حتى يخيل اليك انك ايضاً جزء منها ! فعندما يمرّ بك منظر خيول تركض مثلاً ، فانك تراها تركض فعلاً من حولك كأنها حقيقة ماثلة بارزة من الجدار ، تركض من امامك ، وتلفّ من جانبك ومن خلفك وتنعطف على الجانب الآخر حتى تختفي ، فهي تلفّ حولك من كل الجهات بارزة على الجدران المستديرة ... وهكذا كل منظر يلفّ حولك في هيئة بارزة ناطقة كأنما هو حقيقة وليس صورة سينمائية ... والاشخاص الذين تدور حولهم القصة يظهرون كأنهم يطوفون حولك بذواتهم يتحدثون او يغنون ، بمظهرهم الطبيعي ، وكل شيء بلونه الطبيعي مما يجعله أقرب للحقيقة الواضحة .

وقد بهرني منظر طبيعي ساحر أخذ في منطقة سيبيريا ، خُيّل إليّ وأنا اتابعه يلفّ حولي ، كأني هناك حقاً : كانت هناك فتاة رائعة الجمال تحيط

بها مناظر طبيعية فاتنة، وهي تغني بصوت عذب، وكانت بعض كلمات الاغنية – كما ترجمها لي مرافقي (يوري) – :

اذا قررت ان تقوم بسياحة

في مناطق الغابة بسيبيريا

واذا وجدت نفسك في هذه الغابة

بعيداً عن المناطق المأهولة

وأصابك زكام خفيف !

فانك ستجد الدواء قريباً !

في أقرب صيدلية !

على بعد اربعمائة كيلومتر فقط !

وسيبيريا منطقة واسعة شاسعة ، والأغنية تعبير صادق يفصح عن مدى اتساعها ، وكما يعلم القراء فانها كانت في عهد القياصرة منفى قاسياً ، ولم تنل من معالم الحضارة والتقدم شيئاً يذكر .

لم أشعر بالتعب وأنا أقف اكثر من ساعة ونصف الساعة اشاهد هذا الحدث الفني الرائع.. وخرجت وأنا اكبّر العلم الذي كم تمنيت أن لو اقتصر في تقدمه على المجالات التي تنفع الانسان ، وابتعد بنا عن مجالات الخراب والدمار .

المترو تحت الارض :

وقال مرافقونا : لنذهب بكم الى مترو موسكو الذي يسير تحت الارض ، فإنا نعدّه من أجمل ما نريه لزوار بلادنا .

وسرنا معهم ، ولم أكن أتصور ان (محطات المترو) في موسكو التي أقيمت تحت الارض بهذه الروعة الفائقة ، وضاعف من جمالها أن زُيّنت بالتماثيل واللوحات الفنية الرائعة ، بجانب النظافة التامة والأناقة الواضحة .

والهبوط الى داخل محطات المترو من سطح الارض يتمّ على سلالم كهربائية، صاعدة وهابطة، ويكفي ان تضع قدميك على احدى درجات السلم ثم تقف، وهو يتحرك بك هابطاً حتى تبلغ المحطة ، وهنا عليك ان تسرع برفع قدميك عنه لتضعهما على الارضية الثابتة ، وقد أخطأت مرة واضطربت ، فصدمت سيدة كبيرة كانت امامي ، فبدت عليها الدهشة والاضطراب والغضب ، ولما رأتني بزّيي الغريب وسحنتي السوداء ، زال غضبها وتمتمت بعبارات تفيض بالرقة والتسامح !.. وناب عني مرافقنا (يوري) في تقديم عبارات الاعتذار لها !..

وفي موسكو سبعون محطة مترو ، ويتحرك في كل دقيقة ونصف الدقيقة قطار مترو يتكون من ست عربات يسير بسرعة ستين كيلومتراً في الساعة .. ويتراوح عدد الذين يستعملون المترو تحت الارض يومياً ما بين المليونين كحد أدنى ، والخمسة ملايين كحد أعلى !

وقد قضينا وقتاً ممتعاً داخل المترو، وكل عرباته مكيّفة الهواء ، والطقس بطبيعته تحت الارض جميل منعش ، وكل مـــا تقع عليه العين يشيع البهجة ويثير الإعجاب .

حقاً ان مترو موسكو خليق بأن يعتز به أهل موسكو .

١٧

في مسرح البلشوى

من زار موسكو ولم يزر مسرح البلشوى حيث تمثّل اروع قصص الباليه الروسي ، فانه لم يفعل شيئاً ! وشكراً لمضيفينا الذين اتاحوا لنا هذه الفرصة النادرة ، فان دخول هـذا المسرح ليس بالأمر السهل ، فكل التذاكر تظل محجوزة لعدة اشهر رغم ان المسرحية يستمر عرضها لأكثر من عشر سنوات! ومن هــذه المسرحية التي شهدنا عرضها في تلك الليلة الساحرة مسرحية (سندرلا) .

وأكذب ان قلت انني استطيع ان اعطي القارىء صورة كاملة لهذا المسرح، وللتمثيل والاخراج ، وقد بلغا حد الروعة المذهلة .

لقد استطاع راقصات وراقصو الباليه ، بمساندة الاخراج الفني الممتـاز ، ان يجعلونا – عن طريق التعبير بالحركة الراقصة – ان نتابع القصة في شغف كأنها تمثيلية ناطقة ، لم يفتنا فيها حرف واحد !

وقد اشتهر الاتحاد السوفياتي بفن الباليه ، وتعد فرقة هذا المسرح اروع فرقة باليه في العالم ، ولا عجب فقد بدأ الباليه في روسيا منذ عهد بعيد ، إذ يرجعون بدايته المسرحية الى عام١٧٧٣ عندما قرر مجلس الوصاية لملجأ الايتام بموسكو افتتاح فصول لدراسة فن الباليه ، وفي عـام ١٧٧٨ تخرّج اول فوج



اشهر راقصة باليه في الاتحاد السوفياتي الفنانة غالينا اولانوفا

وكان يتكون من ثلاثين طفلاً من اطفال الملجأ ، وقد اصبحوا فيما بعد من ابطال هذا الفن الممتازين واستطاعوا تقديم رقصات تعبيرية هادئة ، بعضها كوميدي .

وفي عام ١٧٨٠ كوّن مسرح بيتروفسكي الذي اصبح بعد ذلك مسرح البلشوى الذي اكتسب شهرة عالمية ممتازة والذي قدّمت عليه اروع مسرحيات الباليه ، وشهد ارفع مستوى لراقصي وراقصات الباليه الذين فتن بهم عشاق

هذا الفن في كل انحاء العالم ، وما زلت اذكر في عهد الثلاثينات كيف كانت المجلات العربية تغمرنا بالحديث والصور عن راقصة البـاليه الروسية الشهيرة (غالينا اولانوفا) حتى صار اسمها على كل لسان .

وتعتبر فرقة الباليه على مسرح البلشوى هذا،من مصادر الدخل المحترمة من العملات الاجنبية ، إذ اعتادت ان تقوم برحلات سنوية الى العواصم الاوربية حيث يتهافت عليها عشاق الباليه ، ومـا اكثرهم ، وقد فتنوا بها الى اقصى مدى .

ولست ادري ان كانت هناك فرقة باليه في العـالم ، غير فرقة مسرح البلشوى، تقدم مسرحية لأكثر من عشر سنوات وتظل تذاكر هذه المسرحية محجوزة لمدى اشهر عديدة قادمة ، والازدحام على مشاهدتها يزداد عنفاً !

لقد كان ختاماً ممتعاً حقـاً لزيارتنا تلك الليلة الخالدة في مشاعري لمسرح البلشوى الفاتن ، وقد قدم لنـا راقصوه وراقصاته ذوو الاجسام المثالية والوجوه الحسان الوضيئة قصة (سندرلا) في أداء معبر ادق تعبير بالحركات الراقصة الناطقة .

خاتمة

قبيل سفرنا ، دعانا السادة اعضاء جمعية الصداقة السوفياتية السودانية الى الغداء في الدار التي تحمل اسم جمعيتهم الصديقة الكريمة . وقبيل تناول الغداء جلسنا جميعنا في احدى غرف الدار الواسعة ، وكان يتوسط الاجتماع رئيس الجمعية الرجل العالِم السمح النفس الدكتور (سيرجى كفتانوف) وزير التعليم العالي السابق ومدير معهد الكيمياء في موسكو . وقد سرّني ان علمت منه في ذلك الاجتماع انه زار السودان وقضى وقتاً طيباً في الخرطوم وهو يذكر ما لقيه من حفاوة وتقدير بالغين . وقد حدثنا في هذا الاجتماع عن انطباعاته عن تلك الزيارة، وقد أخجل تواضعنا بما تحدث به عن السودانيين الذين لقيهم وحفاوتهم به ، وحدثنا انه حضر عرساً سودانياً ، ولكي يؤكد لنا ذلك هز بيده وهو يقول : أبشر !.. أبشر !.. على الطريقة السودانية العريقة .

وأدهشني ان عدداً من اعضاء الجمعية — وكلهم من العلماء والكتّاب والفنانين — يجيدون اللغة العربية الفصحى إجادة تامة ، ولبعضهم مؤلفات عربية ، ولأحدهم قاموس عربي روسي .

وقد وجّهوا الينا سيلاً من الأسئلة عن السودان، من ذلك أن سألني احدهم ان احدثهم في إيجاز عن تطور الشعر العربي في السودان . وآخرون طلبوا ان نحدثهم عن مراحل التعليم في بلادنا ، وسأل بعضهم إن كانت اللغة الروسية تجد مجالاً لتدرّس للسودانيين ، وسألت احدى الفنانات المنتمية للجمعية عن المسرح في السودان .

وأخذت وزميلاي نرد على سيل الأسئلة الدافق والذي يؤكد مدى رغبتهم الملحة في التعرف الى بلادنا وأحوالها .

وقد قدمت لهم في هـذا الاجتماع مؤلفاتي وعدداً من المؤلفات السودانية المختلفة والتي تمكنت من اخذها معي من الخرطوم ، دفعني الى ذلك ما علمته من ان مكتباتهم العربية تكاد تكون خالية من المؤلفات السودانية ، وقـد اخبروني انهم سيضمون الكتب السودانية التي قدمتها لهم الى المكتبة العربية الملحقة بمعهد الدراسات الشرقية بموسكو .

كان مما تحدث به الدكتور كفتانوف عن رحلته للسودان لقاؤه الذي ما زال متأثراً به للمغفور له السيد علي الميرغني وكان السيد بابكر محمد علي قـد سأله عن ذلك ، فقال : انه عندما كان في طريقه للالتقاء بالسيد علي الميرغني كان في اعتقاده انه سيقابل رجل دين له طقوس خاصة ، وكان يعتقد ان الزيارة لن تمتد لأكثر من بضع دقائق لا سيما وقد علم ان السيد علي على كبر سنه يشكو من عدة امراض . ولكنه عندما التقى بـه وتبادلا الحديث تبدلت الصورة تماماً ، فقد رأى نفسه مع شخص واسع الاطلاع جداً ، ما طرق معه موضوعاً إلا وجده يكاد يكون متخصصاً فيه ، وأكثر ما ادهشه حديثه عن الشيوعية ، فقد كان حديثاً على مستوى لا يبلغه إلا خاصة علمـاء الاتحاد السوفياتي في هذا الشأن . وقال : لقد امتد اللقـاء الى اكثر من ساعة وليس لبضع دقائق كما قدرت ، وكان هو الاكثر حديثاً مني ، وقد كنت مستمتعاً بحديثه للغاية .

وانتقلنا بعد هذا الاجتماع المفيد والذي دارت الاحاديث فيه بصراحة وغير تعجل لمدة تقرب من الساعتين ، انتقلنا الى مائدة الغداء ، وغمرنا كرم السادة اعضاء الجمعية الى الحد الذي تضاءل فيه كرمنا السوداني الذي نعتز به .

وودعناهم أخيراً وفي قلوبنا تعتمل مشاعر المودة والإخاء ، وبقي ممثلوهم معنا يرعوننا حتى حلقت بنا الطائرة من مطار موسكو .

ومن هنا — الخرطوم — أحييهم على البعد وأشكرهم عظيم الشكر .

الفهرس

طبع على مطابع دار مكتبة الحياة – بيروت